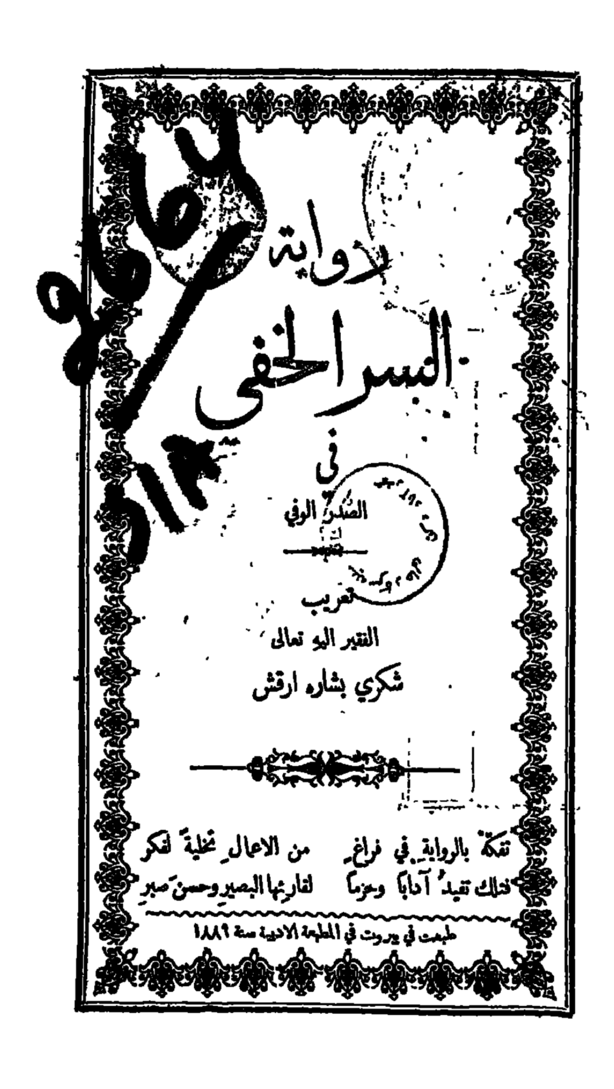


رواية

السر الخفي

في

الصدر الوفي

تعريب

الفقير اليه تعالى

شكري بشاره ارقش

تفكَّهْ بالروايةِ في فراغٍ ... من الاعمالِ تخليةً لفكرِ

فتلك تفيدُ آداباً وعزماً ... لقارئها البصيرِ وحسنَ صبرِ

طبعت في بيروت في المطبعة الادبية سنة ١٨٨٩

مقدمة الكتاب

الى سيدي الوالد كرّمهُ الله

هذه هدية اتزلف بها من رضاك انما هي نزر المقل القاصر الى ساحة الابويّ القادر رواية نتفكه بها سويعات مقابلة لما صرفت من الليالي الطوال ساهراً على نشأتي ثم على تربيتي ثم على تعليمي وقد عربتها عن الفرنساوية من احد كتب العالمة الشهيرة المشهود لها بالفضل الكونتيس داش ببعض تصرف في زيادة تفاصيل ونقص اخرى مما اقتضى المقام لجعل العائدة منها اتم والفائدة اعم بما يطابق اذواق بني بلادنا ويوافق نوعاً عوائدنا واحوالاً من عندنا والغرض من الحكاية نزع الستار عن وجه العشق واحوال العشاق واظهارهم على تزاحم العقبات في طرقهم وتراكم المشاق لعل اخوان الهوى يرتدعون خلافاً لما قيل

يا عاذلَ العاشقين دع فئةً ... اضلها اللهُ كيف ترشدها

فما يحيكُ الملام في همم ... اقربها منك عنك ابعدها

وقد توخيت فيها سهولة العبارة ما وسعتني القريحة الخامدة وما امدتني الروية الجامدة ليكون من فهمه نصيب للكبير والصغير فرجائي ان تبهر الهدية بالقبول وان كانت قاصرة عن مكافاة معروفك ونداك وان تقول قد رايناك

يا [illegible]

الانابة وهو حسبي

ونعم الوكيل



ان فرساي مدينة من اعمال مقاطعة السين وأزعن ١٨ كيلو متر من باريس وفي قليلة السكان لكنها جميلة الموقع على غاية من اسباب العافية والصحة واول مّن عرف بجودة خطتها فاستخارها مقرّا له لويس الثالث عشر احد كبرآ ملوك فرنسا ثم خلفه ابنه لويس الرابع عشر فطرّس على ما خطّ والده بتجديد ذلك الصرح وتشييده على نهايةٍ من النظام الهندسي والجمال الصناعي ثم زنره بجنة تكاد لا تحف بالمكاره. وما من يجهل تلك الجنة فيما بلغته من الشهرة حتى اصبح الناس فيها بين ناظرٍ مخبر وسامع موثر. ومن آيات البداعة فيها قناة تنساب بين خضرتها على حد ما قيل

والنهرُ فيها جاريًا متحدبًا   كالصارمِ المطروحِ فوق السُنْدُسِ

كانت تجمد مياهها اذا قرس برد الشتآء. فتتقاطر الناس حوالها شبانًا تتزلج[1] على الصقيع اعجائب براحة وغواني طائرة عليهم بعيون اعجاب وفتنة والكل موتلف بالثناء على ماري انطوانيت مليكتهم بما فتحت من زهور امالهم في ذلك الملعب التي احيته وفي نفدها منه اشياء

فاتفق ذات صباح ان شابًا غريب الوطن غريب الجمال انتظم في سلك المتزلجين ولعب لعبًا اوقف عليه الابصار واحار فيه الافكار بحيث احرز القصب عليهم. وكأنه قبض على اعنّة القلوب فاستمالها اليه بلباقة خفة ورشاقة عطفة لم تنقصه النسآ من حق الاعجاب به لثيابه المبتذلة التي

---

(١) تزلج زلق على الجمد.

كانت تشير الى بعده عن مناصب الرفعة والغنى فاخطا خطوة في الملعب الاّ تبعتهُ العيون وجنح على راسهِ حمام المحبة والغيرة

ان المليحة ما كانت محاسنها   من صنعة الله لا من صنعة البشر

فتحدث بهِ الناس على اختلاف مواقفهم واشاروا اليهِ بالبنان ٠

وكان في جملة الناظرين فتاتان شقيقتان في ثياب صينة على آخر زيٍ ابتدعهُ الحسن في باريس

لبسنَ الوشيَ لا متجملاتٍ   ولكن كي تزنّ بهِ الجمالا

مطوقتان بعقدين من اللؤلوءِ على جيدين من عاج

عمرك الله هل رايت بدوراً   طلعت في براقعٍ وعقودِ

وكأنَّ الاهتمام بذلك الغريب ضُرِبَ وزيعةً على الحضور فالتفتت الصغيرة الى اختها وقالت

— الا ترين ما يفتن بهذا الرجل الذي دهش الناس بقوتهِ الغريبة وبهائهِ الانيق لك الله ما رايت احكم من تكاوينه رسماً واعدل منهُ جسماً قد يقل الحسن في الرجال ولكنهُ اذا اصاب احدهم انزل عليهِ آيات سحرهِ فسبحان الله ولكن من يكون هذا الغريب ياعزيزة

— اذا شاقتك معرفتهُ فلا اكثر من ان تستعلمي عنهُ

— وما ادراك انهُ يهمني فاستخبر عنهُ

— ما اعني ذلك او ليس الاستفهام بجائز

ثم نادت الصغيرة باحد الحشم الواقفين في خدمتها فحضر وامرتهُ ان ياتيها علماً عن المتزلج الغريب فانحنى ثم تغيب بين الجماعة

وبينا هما في انتظارهِ اقبل المتزلج مندفعاً على الجمد بسرعة حتى انتهى اليهما فوقف وامعن النظر فيهما ملياً ثم عاد وهو يتثنى كالغصن ويباهي ما وسعهُ الحسن ولكنَّ جسارتهُ بل فحشاته ساءت امرانت (وهو اسم كبيرتهما) فالتفتت بنفرةٍ الى اختها اوررو وقالت

— كفانا مقاماً هنا فإنّ هذا الرجل ما وفانا حرمتنا ولو رآنا احد من الكبار لظنّ فينا سوءاً

— لك الخيار غيران النهار بهج والمستنزه فرج

الرجوع اولى فقد هزئني قلة توقيره لنا

— انذهب قبل عود الخادم الذي ارسلناه

— دعيه انه يتبعنا الى البيت

فرجعت باختها وما ابعدتا الاّ قليلاً حتى لحق بهما الخادم واخبر ان ذلك الرجل مجهول الحسب والنسب والاصل والفصل

وكان المتنزه قد ترك الحديقة لما غاب الفتاتان وسار في اثرها متلطفاً حتى أدرك خادماً متاخراً فطرح في يده قطعة من ذهب

— اسمي سيدتيك ان شئت

— مدام دي بوجور ومدامواريل دي سانت مام . فشكره ومضى

اما الشقيقتان فدخلتا في احد الاقبية وصعدتا في سلم يوصل الى الطبق الثاني من القصر (وهو منحة من الملك لمن كان يؤثر من حاشيته) ثم دخلتا الى غرفة مفروشة بابهج الانسجة ومزدانة باوان دقيقة الصناعة من الذهب والفضة والخزف الصيني فسلمتا على شيخين مصطليين تجاه النار سيد هيب طاعن في السن وعجوز اقل منه عمراً صفراء اضعفها ازمان مرض

— مرحباً يا ولديّ ما اطلتما الغيبة على غير عادة

— لم يسعنا يا اماه ان نبقى دقيقة اكثر فان متزنجا من موقة الناس انيق الصنعة غيرانه جسور شخ حبس اورور ببصره وكانه جعلها شغلاً شاغلاً له فما وجدت انسب من الفرار

— ظني انه مال اليك اكثر مني وانه . . . .

— يكفي ارى أنّ كلتيكما اصبنا حظوة في عينيه ولا غرو . . .

فقاطعها المركيز

ـــ لا تضحكي ياسيده بل امدحي الكونتة امرانت على فطنتها التي تدل انها رزينة محصنة فان بنات هذا السن ازق واطلب لاعجاب الناس من حقوق الحرمة والوقار وقد سرني فعلها لما فيه من تخفيف احمالنا في السهر عليهـــا

ـــ كيف لا تخفف احمالك وانت سندنا الوحيد بعد ان حرمني الله انس بعلي ولم تخلك ولدًا ذكرًا يقوم لنا مقامك،

ـــ ذلك فرض عليّ لا اخل به بل ارفع ما استطعت علم الشرف الذي ورثته من اجدادي ولا ينزل الّا ليصاحبني الى القبر لاني اخر فرد من ذوي اسمنا

وما اتم الشيخ هذا الكلام حتى تقطب جبينه ورفرف جفنه فنكست المركيزة بصرها وزاد حزن بعلها الالم الذي كان قد طال عهده فيها فافقدها لذة اليقظة وطيب الرقاد

وللقاري ان يحكم عن توليّ الرصانة والسكينة في ذلك البيت في ظل شيخ جليل كالمركيز من رجال القدم المتشبثين بالشرف حتى يكادوا يعبدونه بحيث كان يفضل ان يقتل احدى ابنتيه من ان يدنس عرضها و بركة عجوز امضت حياتها في الوجع المزّلا تعرف الابتسام الّا على جبيني ولديها . قضت عصر لويس الخامس عشر فيما افسده من الفحشاء ولم يشتبه قط بطهارتها وكلاهما كانا سعيدين بان غرسا في الارض غصنين ما مسها حتى الماء النقي لولا ان الأم المركيزة واحزانها الخفية التي استمال على زوجها ان يكتشفها القنة بين الشك فيها واليقين لامر لا يعلمه الا الله

ـــ الى تريانون الليلة الا ياولدي

ـــ نعم يا ابي قد شرفتنا الملكة بان عينتنا للذهاب واياها الى مرقص

ـــ ومن يصحبكما اليس مدام دي بريون

ـــ هي نفسها كالعادة

— اذن اسالكما والح بان تنتبها لانفسكما واعتنلا جهدكما الاسباب فالله وابوكا يستوجبان ذلك منكما والحرمة تحميكما ان لم اقل الفضيلة

— اياك نطيع في كل امرٍ يا والدي وان ابتعدنا عنك فلا نزال تحت عينيك وانقطع الكلام هنيهة لانشغال كل من تلك الميئة بفكر طرأ عليه .

وطال الحبس على اورور فخرجت الى قبالة الحديقة ورمت بصرها على من بقي فيها فابهجتها الجماعة على اختلاف اشكالها وحركاتها واصبغة ثيابها وما لبثت ان صرخت بنفضة خفيفة ونادت الدوكة لانها لحظت المتزلج مستندًا الى صنم وعيناه طامحتان الى القصر

— انظري يا امارنت هوذا

— لا تتظاهري لعلّ نظره يقع عليك فيخالك مكترثة له

وفي اثناء ذلك اقبلت المركيزة امها وقالت

— ما بالكما يا ابنتي باضطراب وحيره

— قد لاح لي الرجل الذي افزعنا اليوم في المستنزه

— اريني اياه لا شك انه قبيح المنظر

— تعالي فانظري واذا نظرتِ فبعد ذلك حدثي

فدنت المركيزة والقت بصرها على الجماعة حتى لمحته فاضطرمت فيها نار حاولت ان تسترها عن الفتاتين

— انه حسن لكن جماله جمال شر يستجر الشقا والاثم . ارى على جبينه لائحة رائحة احاده الله عن طريقكما يا ولدي فقد يكون لكما مشئومًا وعندي من ذلك سابق علم وا آسفاه

فعانقها الفتاتان رجاء تسكين جاشها حذرًا من تاثيره في صحتها . وكان لامرانت تعلق زايد بوالدتها ولا تسل كم ليلة احيتها في خدمتها كل ما اشتد الداء عليها تقدم لها ما شاءت وتقويها على احتمال المكروه

— سكني بلبالك يا اماه فلخير ان نمتنع عن المرقص من ان يقلقك

ذهابنا وفي الواقع اي علاقة تصلنا بهذا الغريب فما هو من عالمنا ولا ذوي عاداتنا والاتفاق الذي قربه منّا لا شك يبعده عنا واي غرض لمثله عندنا

والحال رفع الرجل كتفه لمن ٍ وحيي ٍ بكل وقار كانه يريد تكذيب اقوال الدوكة فانصاعت[1] امرانت واختها الى الوراء ولبثت الام وحدها في مكانها مصوبة عينيها على ذلك المحل

—اما اصبت يا ارور . . . اما اصبت يا امرانت بحياتي . . . ياعزيزتي لا ترياً هذا الانسان لا بيكما مخافة ان يقتله ولو كان اطهر من يوم ولادته

و بعد ذلك رجعت الى غرفتها وسدلت الستر هنيهة ثم عادت اليها

— اراك موجعة ياسيدتي ا ابقي وتمضي اورور وحدها مع مدام دي بريون

— لا احرمكما هذه المسرة ياولدي . قد قربت الساعة ولعل الملكة في انتظاركما فاذهبا بسلام

— يشق علي ان اعول على الرواح واتركك في اضطراب

ولكنها اطاعت بعد الجهد وامرت فسبقها اجيرها بليق من واثل الزينة والصينة واستودعت امها الله الى بيت مدام دي بريون اميرة آل لورين التي عدت من اعقل واهيب نساء البلاط الملوكي على ما عرف بها من لطف الطبع وطيبة القلب ما جعلها ان تسعى كدليلة لابنتي خالها المركيز دي سانت مام بعد اعتلال امها

فلما دخل الفتاتان رحبت بهما كثيراً والحى ابنها البرنس دي لاميل للتسليم لا يمنعه من الرقة والاحترام ما اشتهر به من الحسن والشجاعة ووقائع لا تخلو من الغرابة

— اعندكما حلل المرقص الرسمية

— نعم ياسيدتي قد تفضلت باعلامنا فلبسنا الحالة لبونها

---

(١) انصاع رجع

— لنا الليلة مواجب حديدة المصرع فقد اذنت الملكة لبعض الحرس الملكي والشرطة السوبسبهن بالدخول والاشتراك بالرقص وعليو زاد عدد الراقصين [1] وفي الغد لنا صبوح في البرية ثم نرجع الى فرساي والمساء نجتمع للسمر [2] واذا طاب لكما فلنذهب الان الى قصر الملكة

ولما وصلت مدام دي بريون ورفيقتاها استقبلتهن الملكة بالبشر والبشاشة

— ما احلاك مقبلةً ايتها الوحشة الانوسه امرانت اودعتنا اياك مدام دي سانت مام فاناً معجبة بالوديعة. مساك الله بخير مدامواز يل اورور المتنسة كالصبح ما اجمل هذا الثوب عليك. و بعد قليل من الراحة ركبن العجلات الى المكان المعهود.

(٢)

وعند وصول المدعوين الى تريانون قدم لهم غذا خفيف دخل النسآء بعده الى قاعة اعدت لهن على حده والرجال الى قاعة اخرى والكل تحت براقع وبرد [3] تشف عما اختلفته الخلاعة في ذلك العصر

وفي الساعة الثامنة صدحت الموسيقى بالحان لا الذ منها تشير الى افتتاح المرقص فخلت القاعة بالناس ما بين غادات ورجال في ثياب جديدة حديدة الاشكال والالوان يقصر المرء عن وصفها. ومن عادات تلك الايام ان تبقى الرجال والنسآء تحت البراقع حتى العشا فيطرحونها وتتعارف الوجوه

وكان بين الجماعة رجل استلفت حسن قامتو و بديع صورتو اعين الحضور واستمال قلوبهم. اخيد ماس بين الجماعة فاعجب وابدع واخذ بالرقص فغرب واغرب لعجبت بو العصبتهم فصار كانة منزل من السما

(١) الراقصين (٢) حديث الليل (٣) ملابس

— هذا لا شك قيسة يس اله الحسن والرقص يامولاتنا

— ما ارى اله الحسن والرقص يتزل الى تريانون . فاجاب الكونت فور بل

— ياسيداتي ليس هنا الاَّ احد حرس جلالتهِ انعمت عليهِ شفقة الملكة مدعوة وقد سمعت انهُ يتم رقصة اسبانيولية يقف عن مثلها مبدعوا الرقص ولا غرو فانهُ زهرة الحرس وافرسها

— احبُّ ان اري يكن حركاتهِ فلبساً لهُ الكونت ذلك

و بعد هنيهة عاد الكونت وقدم الي الملكة تشكرات الحارس بما نالهُ من تعطفها . وتواطأ الزافن مع الموسيقيين فاحدقوا بهِ واخرج من جيبهِ طقاطق فرقص بما اضحك الجمهور بادئ بدء ثم فتنهم بمايلهِ ودرجه على قياسات وقواعد صحة المثال في نهاية من التفنن والتلاعب حتى صفقت لهُ الملكة بنفسها وسالتهُ مرارًا اعادة الرقص واستدعتهُ من ثم بلسان شفيعه البرنس دي كونتي

— ما اسمك

— ارمان دى ناربل ياسيدتي

— الك مدة طويلة في خدمة الملك عجبًا . فهذه اول مرة اسمع اسمك مع اني اعرف كل الحرس

— قد تشرفت صباح اليوم بالدخول في الفرقة الايكوسية

— من اي مقاطعة اسرتك[1]

فاعرض عن الجواب وتكلم عنهُ البرنس دي كونتي فقال

— انهُ يتيم كان ابوه اقرب واصفى كل خلاني اوصاني بهِ حتى على فراش الموت

فلم يخفَ على الملكة ما اريد من تلك السكتة وجواب الكونت عنهُ

(١) عائلة

فشكرت الفتى ووجدته بمثابة منها تدفع عنه النوائب وتميت عند اقدامو فوج المصائب

وفهم ارمان بانّ وقوفهُ في حضرة الملكة قد طال فاتجه برقة وعلى اوان حتى تغيب في الجماعة . وكانت مدام دي بوجور الى جنب الملكة تسمع ما دار بينها و بين الشاب فرقت له وتبعته بناظرها

فاستند الى عمود ورفع برقعة هنيهة يتنفس لانه على غير المعتاد مثل امام الملكة محجباً ثم انقلب يفحص النسا الجالسات واحدة واحدة

ودنا من امارنت فقدّم لها يده وعاد بها مغتبطةً في ظاهرها مختبطةً في داخلها لقلة حبها للرقص واتقانها له . ولما رأتها الملكة معاً امتأ نفت حديثها مع دي كونتي

— انّ حبيك يابن العم قد احسن الانتقاء

— فاحمرت امارانت واخذت معه بالرقص بما زاد الناس تصفيقاً لها واستحسانا حتى اذا فرغا اختبلا عن الكلام قليلاً ثم تهيأت لارمان عبارة فافتتح بها

ـ ما اجود الملكة ياسيدتي

ـ نعم اجود من أن توصف

وختم الحديث بلا صلة ولا عائد فرجعت الدوكة الى محلها مبهماً عنها ذلك المجهول الغريب الذي اعترض كالمغر بين ملاء[1] متعارفين كل التعارف

وسالتها اورور عن حديثها

ـ مااصبتـر ياعزيزتي بالتسمية حديثنا لا يستاهل هذا الاسم فما نشافهنا الا بكلمتين ما يشبه تسليم ذاهب على راجع مستعجلان . وفي عرض ذلك اقبل الموسيو دي ناريل على مدام وازيل دي سانت مام ودعاها

[1] جماعة

فقامت وجلست اختها مكانها عن يمين الملكة

— أتعرفين يادوكة من ذا الراقص

— لا اعرف الاّ ماقالهُ عن جلالتك

— اظن انهُ دوك او كنت طولوزي من الفرع الثاني

— لعلّهُ يامولاتي

— لهُ كياسة ومظاهر شريفة ممتازة وفي العشا نرى وجههُ

ولم تجب امارانت على سوالات الملكة وملحوظاتها الاّ بما قلّ وجلّ مما لايخرج عن دائرة الحرمة لكنها لبثت معلقة نظرها بارمان لما وجدت في حركاتهِ وسكناتهِ من الذكرى المبهمة — تعرفين هذا الانسان من زمان قريب ولكن اين — وهذا الفكر خالجها طول الاقامة حتى دعيتْ الى العشا فجلست على المائدة تفتش عنهُ حواليها على غير فائدة . وشعرت الملكة بتخلف الجندي فقالت

— لا بد لهذا الشاب من خشية بالتظاهر فانظريهِ يادوكة بعيداً محدقاً بنا تحت البرقع ارتياب باننا نتكلم عنهُ

— اذا لم يكن جائعاً فلا داعي ليجلس على الطعام

— وانت يادوكة ارصن واحزم من اترابك(١) ولو فقدتِ زوجك . فما اراك تخطين خطوةً في المرقص

ومن عادة الملكة في ذلك العهد ان تهزل وعشيراتها فترشقهنّ بسهام كانت تقبلهن مردودات في دائرة الاعتدال والوقار ولكنّ مدام دني بوجيرما اجابت قط الملكة على رميةٍ اصابتها منها مقيمةً على ركزها مستمرةً على عبوستها التي بخست غير مرةٍ من حقّ جمالها في اعين الاشراف ونسب ذلك الى بلادةٍ عندها وعدم اكتراث للتفخيم ومقابلة اللين بوجهٍ قاسٍ وهيئة باردة دونها نفس مضطرمة وقلب نقي حنون

١ اتراب امثال

وقد اضطرها الى ضبط انفاسها مـا علمتها قسوة ابيها منذ الصبا ما صدها ان تجلو مرة بنات فكرها في سرآ او بؤسا كانّ وجهها الهادي بسيرته لا يكشف عن طواياها حزينة ولكنّ من التاثيرات التي عجزت عن تلافيها الشقآء بحيث ما عرفت الراحة حتى بين جماعة غمرهم السعد

فكأنّ قلبها حبيس حكم عليه بالالم والتعذيب ويا له من شهيد او مجرم أمر امرًا لا يدفع بان يحمل الاحزان والنار الى حيث يمضي ولا يلهو عنها بمجلس تسلية او حيلة تخلية فما برحت ساعةً الاّ انقلبت منقلب امها من الوصب[1] كأنّ الداء مقتسمَ بينهما — امك ياحزينة تتعذب لكن يارب متى تعود اليها الراحه

وكانت نفس المركيزة مفروحةً حتى الموت من الانفس التي لا تجد الراحة الاّ في القبر وامرانت جاهلة مايكوي والدتها من نارٍ خفيه تاحر نار الجحيم ابردها لانها ما عرفت في الحياة الاّ شيئًا من العواطف والمعاناة وما سمعت من صوت العشق الاّ حفيفًا لطيفًا قارب ان يكشف لها السر المندرج في سريرة امها ويعلمها ان تزيد حبًا بها واشفاقًا عليها وهذا ما اطفأ نور الابتسام على وجهها وجعل ان اورور مع انحطاط رتبتها بالحسن عن اختها تملأ العين اكثر منها لما انها ما داخلها الم ولا اعتنت قط الاّ بالزهو واللهو فكانت املق وآنس من اختها ولكن اضعف شركًا وابهج ولكن اقل حنوًا واشوق ولكن اقل ولاء وكمالاً لصغر سنها

وطالت الزينة على امارانت فقامت متبرقعة تخطر من غرفةٍ الى اخرى وبينا هي خلف منقلب باب صادفت دي ناربل فاعترض مسيرها

— اذنك بكلمة ياسيدتي واحدة فقط

وهذا الالحاح اثر فيها غاية التاثير فاجابت بنفرة

— ما امرك اظنك مشتبهًا بي اشتباهًا

---

(١) الوجع

ـ لست بمخطي فانت مدام دي بوجور وكيف لا اميزك ما بين النسوات التي تملأ هذه القاعة فاجبي الى ما سأسالك لان من ثم سنعدي وسعدك

ـ نحن في المرقص فاسمعك ولا حق لي بالكدر طالما لا تخرج عن اللياقة

ـ وعليهِ ياسيدتي اتؤمنين بالغرام الفجائي

ـ ما فكرت قط في مثل هذه المواد

ـ اتؤمنين ان لمحة طرف تغير وجود انسان · أتؤمنين أنّ رجلاً يري امرأة اول مرة فلا يخاف ان يقول هذه الامرأة لي فاما هلاكًا او ظفرًا بها

ـ اخبرتك بانني لا اعرف شيئًا مما تذكر فاسمح لي بالمرور

ـ دقيقة ياسيدتي ثم تطلقين انا احقر واسفل منزلاً من ان اعاشك وقدرك ارفع فاعلي وقد اقسمت الاّ اخرج من هنا او املك · انني يتيم لقيطلا مال لي ولا اسم معروف وساكون حليلك او مالكًا لك وتحبينني على الرغم منك لانني مجنون عشقك وقبيل جنانك اذا لم تمني عليّ بسعادة وصالك · وقد ارادك فؤادي وارادتي لا تخيب وهي لا تدعوني الى مهمة الاّ اجيب

ـ اغفر لك مزحك وهذرك لانك جاهل لي وفي ذلك حدنا هنا من الحديث فدعني اجتمع باختي ولا تكلمني البتة فيما بعد

ـ لست بهازل ياسيدتي وانا ايضاً اسامحك لانك لا تعرفينني لست احد المقصبين اليك لكنني رجل ربيت في بلادٍ حرّةٍ على يد اناس فرسان اناس اشداء متحككين في الافات وهم علموني ان اعرف ماذا اريد وعلى اي شيء اقدر ومتعلمين ذلك مثلي ولا تجاهلين

فاختبلت امرانت بما سمعت من كلامهِ الغريب الذي اوقد في قلبها نارًا وما ادراك ما هي وقد ودت لو اطالت محادثتهُ وان لم تكن عذرية

حلوة ما عودها عليه رجال الملكة لو لم يضطرها ذكر ابيها واعتيادها منذ صباها على الفضيلة ان لا تقف موقف حذر

ــ اختصر ياسيدي ودعني وسبيلي

ولم يعسر على ذكا آرمان ان يلحظ ان كلامها لا يخلو من ايجاب محض

ــ حرة انت ياسيدتي ولكن انا تنازلت فسمعتني دقيقة اخرى تبينت اننا معارف. «انّ المعارف في اهل الهوى ذمم». اما انا فقد عرفتك ايتها الخريدة المعذبة المعدودة انفاسها منذ ما ولدت اعرف ان تحت ظاهرك البرود شعلة محرقة وانّك محتاجة ان تعشقي او تعشقي قبل ان تحيي فاطمئني الان واسعدي فقد شغف بك رجل لا مستحيل عليه رجل بارادته وقوته يذلل كل الصعاب رجل لا يحتفل حبة في سبيلك وليس يعلم اميالي وامالي الاّ انت فلا تفشي هذا السر او تشهري . والان عليك السلام لا اريد ان تنسيني بل ليتبعك ذكري روحاً معزّياً وستريني عما قليل على حين لا تنتظرين فاعيش قريباً منك مستمعاً لحاماتك وللدفاع عنك حابناً لك كثيرا الضحايا

وعند ما انهى كلامه رفع برقعة وارى الدوكة وجه المترجم الذي شاهدته في الصباح فقالت في نفسها ـــ يا لله من كان بحسبه هنا قد صدقت امي فانه شقوة لي

ــــــ

(٣)

وكانت مدام دي‌مانت مام منتظرة غير مصطبرة وقد سهدها في الليل الغابر بلبال مبهم لا موضع فيه للشك فزادت حماها وكادت تذوب.

وفي مساء اليوم الثاني رجع الفتاتان لتغيير ازيائهما فوجدتاها مطروحة على الفراش

ــ مالك يا امرانت لا اخال داخلك صافياً رائقاً كظاهرك

ـ على عادتي يا اماه ولكنني اراك آكم من قبل فماذا جرى باسم الله ·

ـ يا ابنتي قد جد لك امر لا تخدعيني به قد رايته واحسست به ·
وكيف تخفى اثار السهاد في ليلة طال جنح ظلامها على وجه ارق من الورق واصفى من صفحة الماء الزلال

فاجابت الدوكة جواب تخلص ناسبة تغيرها الى تعب المرقص واسباب اخرى لا كنه لها مما لم يخف على مدام دي صانت مام انحرافه وكذبه فطوت عن ذلك كشحاً في حضرة اورور ثم قالت

ـ اذن قد رقصتِ كثيراً يا امرانت

ـ مرة فقط

ـ وفي ذلك انت معيية

الا والذكر في فوادها والشوق قادح في زنادها

ما مرّ ذكرك خاطراً في خاطري الّا استباح الشوق هتك سرائري

ـ نعم انني على غاية من التعب ومن ثم محتاجة الى الراحة فاذهبي يا اورور الى بيت مدام دي بريون واعتذري لي عندها عن غيابي بانني موجعة و باقية للاعتناء بوالدتي

ـ ابقي معك والافضل ان نستعذر كلتانا الى الملكة انها لا تجود من ان تستاء مع علمها ان يوماً كالذي قضيناه يضنك الجسم ولا اظنها انشط منا بكثير

ـ اكتبي الى مدام دي ريون يا امرانت

فجلست مدام دي بوجور على منضدة الكتابة امام الشباك واخذت قلماً للابتدا بتذكرتها ولكنّ عينها تاهت على حرس الملك وافتين تحت القصر واذا بارمان في زيه الرسمي لا يحول ناظره عنه فخفق قلبها واخلت كرسيها ورجعت نحو امها مدمدمة من الكيد

ـ لا اقدر ان اجلس في هذا المكان · اورور تكتب باسمي

— ياللعجب ايتها العزيزة انت اليوم اغرب من غريبة بما تغير من احوالك. ظني يا اورور ان اخلك متأثرة لعدم ذهابك لما فيه من الاخلال بواجب اللياقة فامضي حرسك الله ولا تطول السهرة فتعودي

فاطاعت اورور ولو عن غير رضى واختلت في غرفتها لتتزيا وتتزين. ودامت مدام دي بوجور بحضرة امها منتظرة ان تسألها ما لا تحب الاجابة عليه

— يا ابنتي ما بالك صامتة الا شيء في نفسكِ فتكشفيه لي

— ماذا اكشف لك وقد تعلمين من قبل كل ما في قلبي

— انك واقعة في خطر لا اعلمهُ وعندك شاغل لا يجهله امثالي من ذوي الاجسام النحيفة العصبية لانَّ لهم حساً سادساً يقتدرون به على ادراك ما لا يلحظهُ غيرهم ولاسيما اذا كان من مهام القلب. فحاولي ما شئتِ اخفاءهُ لا يزداد في عيني الا جلاءً. ولكن تكلمي ياولدي العزيزة تكلمي ولا تخشي من ازعاجي ان سكوتك قلق لي على قلق

— امرانت يا اماه شقية يرحمها الله. هذه قصتي اسمعيها وارثي لي وروت لها ما اصابها في الليلة السالفة من مواجهة دي تاربل وما تبعها فاصاخت[1] الى كلامها وطرفها دامع ولونها شاحب ثم قالت

— ان للامهات غرائز عجيبة وقد احسست بضربةٍ في فؤادي عند ما ابصرت هذا الرجل لما فيه من مشابهة ...... اعني .... وفي الجملة يجب ان تبعديه عنك وتضعي حدّاً بينك وبينهُ ولو ارتاب ابوك بشيء مما اخبرتني ولو باشارة خفيفة للعنك ومحا اسمك من سفر اسرته[2] الى الابد. لو تعرفين يا ابنتي ما اظلم ابيك للضعف في مثل هذا مع ما يظهر لك من طيبة قلبه. فلتأثرك هذه الكلمات التي اقتلعها من نفس ذائقة الموت على الرغم من الالم الثائر في جسمي والدم الذي ينبثق من شفتي

---

١ اصغت ٢ العائلة

— بعيشك يا اماه حسبنا[1] حديثاً في هذا الهذيان الذي يزرق حشاك
— لا يا ابنتي ينبغي لي ان اعرف جهد امرك . اخبرتني ان الرجل من خصائص دي كونتي ولكن ما اسمه الم يقله
— نعم يدعى ارمان دي ناريل
— ارمان دي ناريل . . . ارمان دي ناريل . . . .

وسقطت على فراشها مغشياً عليها فارتعدت مدام دي بوجور واسرعت فنادت نساءها واستدعت اقرب طبيب اليهم ومسيو دي سانت مام الذي كان خارج القصر فاطبقوا حول المركيزة واستعمل لها انجع الادوية على غير فائدة لانها انحلت دون لطمة غير منتظرة اوشكت ان تذهب بعمرها بين يدي الدوكة امرانت ومسيو دي سانت مام الذي قاسى في حشاشته نزاعاً قتالاً وهو مالك قياد طبيعته لم يبد اشارة اضطراب الى ان زال العارض بعد ساعات

وفتحت المركيزة عينيها ورات على جوانبها زوجها وامرانت واورور باقية في زيّ الزينة فحذرت احزانهم وحاولت ان تبسم قائلة
— لا تختبطوا بعد فقد عادت لي الصحة الى حين

على ان تغير ملامحها وضعفها الرائع كذبا طأمنتها . نعم قد يستطال العيش بالوسائط ولكنّ الوسائط تنفد[2] والقوى تنهد والموت وراء الحجاب يرقب فريسته على اقتراب

— اذهبوا فناموا رعاكم الله اريد ان اتخلى بنفسي
— لا اتركك يا اماه وحدك
— ان جفنيك ينطبقان يا اورور وانت يا صديقي دعني وامرانت فليست الليلة اول عهدها بالسهر عليّ والقعود على شكاياتي ومطالبي
فانصرف المركيز مخافة ان يزعجها انفعا له بسائل نفسه ماذا يفعل

١ كفانا ٢ تفرغ وتنتهي

ايمينتها بموت امرانه او بنفيها لرعاية ابنتيه وصيانتهما

اما المركيزة فاغفت دقيقة استراحت بها وامرانت حزينة لا يمثل لها عقلها الاّ الاوبان الذي طرحه القدر عثرة في طريقها بين ولع به ملك قلبها او خشية منة تنذرهـا بسوء العاقبة . ولعل ذلك الشغف المفرط والامل الطيار طمعٌ منها بالاستيلاء على انسان كتب الحسن على صورته « ايات فتنته الكبرى وما كذبا »

غير ان انعكاس حال المريضة من لفظ اسمه فتح للظن عندها ابوابًا كيف اسم رجل ليس من انسبائها ولا من معارفها اخرجها عن الرشد . لاشك ان من التزوج ما ينكأ من ادنى مسة و يتعدى مع استعمال العلاج فلا حول ولا قوة الاّ بالله المغير الثابت

وبينا هي مستغرقة في الافكار افاقت مدام دي سانت مام فاقدة القدرة

— امرانت انتِ هنا

— نعم هنا وحدي

— فاسمعي ما اوردهُ لك واخفيه في طوايا قلبك امرا لا يدري به غيرك الى الابد . ان تحت وسادتي علبة من جلد فيها مفتاح من ذهب على شكل حلية تلبس ولكنها تخفي سرّا عظيما ترينه بعد مماتي الى كانتي فيملك صندوقة خشب ذاتِ صناعة دقيقة

وهنا صمتت المريضة من عجز الم بها فاعطتها مدام دي بوجور قطرات شراب امرها الطبيب بشربها . و بعد ترويحة قليلة عادت اليها قوتها فاتمت حديثها

— اياكِ اذا كنت لا تريدين ان اخرج من قبري باللعنة عليك اياك ان يشعر احد بوديعتي وخصوصًا والدك . تفتحيها في خلوة محكمة القفل وتطّلعين على ما فيها من الاوراق ثم تطبقينها ولا يفارقك المفتاح

— كل ما تامريني به يا اماه فرض لازب بل نفلٌ واجب

— تعرفين اذ ذاك سبب علتي وموتي وتحكمين على حياة امك بما لا تتداخله شكوك مهينة لاني عشت شقية تعيسة وليس لي بحمد الله ان اندم على ذنب اقترفت امام الخالق والناس

فقبلت عند ذلك مدام دي بوجوريد امها قبلة معنوية ردّت اليها النشاط

ـ اشكركِ يا ولدي على حسن ظنكِ بأبي . فلم يبق لي ان اوصيكِ بشيء من هذا القبيل فانا اموت سعيدة

—لا تموتين يا امي الله يبقيك لنا سالمة لاحتياجنا اليكِ

— لا تعلليني بالمستقبل بل اذكري ان قد دنا يوم الرحيل واذا خطوت من صدر هذا البيت فقومي مقامي ازآء ابيك واختك

— فعيدك كفاني عذاب . ان قلبي المولع الموجع ذاب

— ما لنا وهذه الاحاديث اخبريني عن ذلك الرجل

— ما لك جاد يا امي لاحتمال الكلام عنه

ـ اهو جميل كما لاح لي

— نعم ويظهر ان عنده حميّة لا تزيدها المصاعب الاّ استعارا

— فارهبيه يا ابنتي . واملي ذريعة لاحتجابك عنه ان . . . انْ تتزوجي

— الزيجة . . . . انا . . .

— نعم وقد تقدم لكِ طلاب كثيرون فاختاري من تسعدين معه لا من يغرك ظاهره

كالآل يطمع لامعاً متبسماً   ولمن اتاه زفرة وشهيق

فلم تجب الدوكة .

ـ اعهدك عاقلة حصينة فلا تشوقني

واصرت امراست على صمتها

— اتحبين ارمان

— كيف احب رجلاً لا اعرفهُ من اجل جمال فيهِ انسيتِ ابنتكِ من هي

— اعرف افئدة النساء وقبولها للغرور والانخداع وقد تكونين كذلك على الرغم منك

فحاولت مدام دي بوجير ان تغير مجرى الحديث لارتباكها واظهرت لامها ان اضطرابها كلما زاد شدد مرضها

— لا يهمني الآن تطيعي فاختاري لكِ بعلاً ولا تنتظري نهاية الحداد عليَّ

— نحن في التفكير والله في التدبير فاجلي هذه المذاكرة الى الغد

— أي غد اعلق عليه امالي . لا ترفضي طلبي اعزكِ الله في هذه الساعة الحرجة واقسمي لي ان لا تنتهي السنة قبل زواجك في رضى من ابيك

— لا اقدر ولا اريد

— ليأ ترك تضرعي اليك يا امرانت ابلبليون سو يعاني الاخريات

فبكت الدوكة بكاء مرًّا وجثت على قدميها امام فراش امها واقسمت لذلك يميناً مغلظة بما عزَّي امها المبَّعة فاطبقت عينيها مستريحة على ساعد ولدها . . . يارباه ماذا وعدتها . . . . ولكن ما وسعني ان اخالفها . . .

وحلمت المركيزة في نومها احلاماً ثقالاً واسمعت هذه الكلمات . ارمان . . . ارمان . . . ايوجد ارمان في الارض باقياً من عهد خمسة وعشرين سنة .

وتقضّى الليل كلهُ على هذه الحالة وفي الصباح اتت اورور تنوب عن الدوكة في الخدمة وانصرفت الدوكة الى مخدعها فنامت ساعة ثم افاقت وقرعت الجرس تستدعي احدى نسائها فرأت على المنضدة كتاباً باسمها فضتهُ بلا اكتراث كما اعتادت ان تقرأ رسائل الاستزارة ولكنها رجفت عند اول كلمة تلتها

«احتجبي ما شاء الله بين اهلك لا تريدين ذكري الا اتباعاً لك»

«ومهجتي الاّ رغبةً فيك ولا يصدني عنكِ حاجز حصين كابيك وحشمك»
«وكل من لاذ بك. اتبعك الى حيث تذهبين» فالارض واحدة وانك»
«واحدة» ولا يقفني دونك اعتبار مستقبل او مصلحة. من اين اصابني هذا»
«الشغف بك حتى اعطش اليك فما اروى وانت كبارح[1] الاروى[2] قد»
«رايت نداءً محيا لك ولم اكترث لهنّ. اما الانَ فاعنني بامك ياملاكا»
«اقل هداياه المن والسلوى لا ابطك[3] عن هذه الفرائض المقدسة حتى»
«اذا استأثرت رحمة الله بامك نبت لك عنها. وقد اوثقنا الود فلا يحله»
«الاّ الموت والسلام» ارمان

وبعد قراءة هذه الرسالة جمد الدم في عروق امرأنت من تلك الجرأة التي لا يقدم عليها الاّ كل غني قوي عارف باحوال منزل معشوقته. فعقدت النية على اخفاء كمدها عن امها وجلست تخفض عليها وتهدي روعها حتى زالت آثار الاضطراب عن وجهها ورجعت الى مساعدة المريضة بشكلها الاعتيادي من الركز والسكينه فوجدت مدام دي سانت مام في نكس ملأ جسمها من العياء ورمى البيت كله في اختباط وتفتت اكباد الى ان منّ الله عليها ذات ساعة بتحسين حال خفيف اذن لها ان تعود على بدء الحديث

ــ قبل ان اودع العالم يازوجي العزيز اود لو اطأمن على مستقبل اولادي

ــ اذا دعاكِ الله اليه الست انا نائباً عنك ما رضي الحياة بعدكِ الاّ لهذه الغاية

ــ ولكني ارى حالة امرانت لا تناسب عمرها فان طالبيها كثيرون فمن الذي تؤثره

ــ كلهم لائقون من حيث الجاه وطيبة الاصول ومدام دي بوجور

---

(١) شارد (٢) جمع اروية وهي الغزالة (٣) اعوقك

مثريةٌ (١) فايمٍ شاءَت مبارك عليها

— ومن تصطفين يا امرانت

— رحمةً يا اماه

— ما اظنك نسيت وعدك . فقالت اورور

ـ انا اعرف من تنتقي

— من هو يا ابنتي

— ذلك الكونت البديع الخلقة دندولو الذي يعبدها و يقدم لها دراهم وقصور عديدة شاهقة و يشترط على نفسو ان يزورو واياها فرنسا كلما رغبت اليه في الرجوع ٠

— من ابن لك هذا الاعلام كله

— من الكونت نفسو فقد قالة لي منذ ثلاثة ايام في بيت الدوكة دي بولينياك عند ما ارسلني اليو ابي نيابة عنك

— ما مرامك يا امرانت

— مرامك

— احب ان ارى بعلكِ قبل ان يقضى نحبي واجمع بين ايديكما واكل (٢) سعادتك الى زوجك بكلمتي وصاية

ففكرت مدام دي بوجور انه الرجل الذي مالت اليو كل الميل قبل اعتراض ارمان بينها ولا سيما لما قرأت من الروايات الداهشة عن فينيسية واوصاف تلك المدينة التي ما سمعت قط بمثلها ولم تحسب ان شابًا يقفل ابواب مقاصدها ويلقيها في فضاء من الشك والبلبال فسيح المجال يفضي الى الوبال . ولكنها ظنت ان ارمان قد سلاها لانقطاع رسائلو عنها ولم تذكر وعده انه لايحرك لها ساكنًا حتى ينقضي اجل امها

— اترضين بالكونت دندولو يا بنيتي

(١) غنيه (٢) اسلم

ـ نعم يا امي

ـ وانتِ ياعزيزي أقابل للاقتران

ـ قد استعلمت عن الكونت دندولو فانبئت انه اديب حسن السلوك اريب اشهر اهل فينيسيه نسباً لا محالة غير انه بعيد الدار قذف[1] المزار فالارادة لامرانت في قبوله وعدمه

ـ استدع اذن الكونت من الليلة

ـ من الليلة يا اماه

ـ انت ماهلة وانا مستعجلة وللذين على فراش الموت مطالب ومطامع عده ياولديّ . دعاني الان واياكما وعن قريب انادي كما فينبغي ان لا تذهب باقي سويعاتي ضياعاً

فخرج الفتاتان والقت عليها مدام دي بوجور بصراً مشيراً اليها بالتضرع

ـ لي نعمة اسألك اياها نعمة تطيّب او بقاتي الاخيرة

ـ كلما تطلبينهُ سهل

ـ اريد ان اري زفاف ابنتي على الكونت دندولو الى جنب سريري عندك الف حجة ضد ذلك وكلها قاطعة مانعة لكن في مثل حالتي يغتفر للمريض بما لا يغتفر لغيره لان الموت يسهل كل صعب وليس على ذلك جواب . واذا احببت نكتم الزيجة ضحناً لتفاسير الناس وتآويلهم فامضِ وكاشف الملك والملكة بالسر وهما يدفنانه في قلبيهما لما عهدنا عندهما من الكتمان ولا سيما لما يتعلق بالاسر[2] المنوطة[3] بهما

ـ من اين هذه الرغبة ياعزيزة . لماذا لا تنتظرين حتى يمن الله عليك بالشفاء فنقوم بالحفلة اللائقة

ـ لا تتوهم انني ابرأ فذلك عين المستحيل . اعرف امرانت اكثر منك مع ما في قلبها من الخفايا فهي لا تتعزى على فقدي الى سنة من

---

١ بعيد ٢ جمع اسرة وهي العائلة كامرّ ٣ المتعلقة

الحداد على الاقل ولكل يوم شأن مختلف . على ان امرانت تحبك وتخشاك وقد منحتها من قبل زوجاً قام مقامك بالسهر عليها والميل اليها فلا تحرمها المرة الثانية تلك السعادة امنحها مستقبلاً باسماً وفرح قلبي بان اشهد عرسها ايضاً بحق آلامي وخضوعي لك

وعيناها الناشفتان بخلتا بالدموع وهيئتها اشارت الى انزعاج محزن في دخلتها

— ليكن كما تشتهين باصديقتي اراضية امرانت فاسعى باقامة الحفلة

— ما عليك الا استحضار الكاهن والشهود

فذهب المركيز ورجع الفتاتان الى الغرفة . فبادأت المركيزة امرانت بهذه الكلمات .

— تحبينني يابنيتي وفي حياتك ما خالفت لي مراداً فاسعدي لاتمام آخر امر احتم به عليك . ففي هذه الليلة تزّفين هنا الى الكونت دندولو ويكتم الزواج الى ان تستنسبا اظهاره . واشور عليك ان تسافري معه خفية ولا تخافي لتأويل العالم فان شهرة ابيك تضبطها في حدود الحق فلا تعترضي ولا تتعذري بل اذكري انني اسألك الخضوع سوال مستنتم

فوقعت امرانت على كرسيّ عاجزة عن الوقوف لسقوط تلك الاوامر كالصواعق على رأسها واجابت بصوت ميت

— اطيع

ولا يخفى ما اضرم نفسها عند اقبال المدعوين وما اصابها من اصفرار الوجه وخفقان القلب حتى ان الكونت دندولو راى ارتجافها القوي فحزن وقال للمركيزة

— يظهر ان مدام خائفة مني أليست مطلقة الارادة

— مطلقة الارادة بلا شك على ان زيجتها في سوء طوالع كهذه اثر في قلبها الرقيق وقد ازفت [1] في تسليمها اليك لاوصيك بها انا بنفسي فاجعلها

---

١ اسرعت

سعيدة اسعدك الله واحلل محلي في قلبها ولتهطل عليكما بركاتي الى الابد

ولا يوصف ما فعلت على قلب الكونت تلك الفجاءة السارّة واستماع اقوال المركيزة البرّة حتى طفح الفرح في كبده وظن نفسهُ على باب النعيم. فقبل يد خطيبته بوقار ولطف انسياها كل غمها وحملاها ان تجثو امام امها وتعرب عن ملء بهجتها بهذه العبارة

— اشكركِ الف مرة يا اماه

— الحمد لله ياولدي قد طابت نفسي وقرت عيني

ولما وصل كاهن البلاط من قبل الملك عقدت اكاليل الاقتران على راسي العروسين وبكى الحاضرون بين فرح وترح . ثمّ وقف القرينان ورنمت المركيزة ترتيلة ظفر بصوت متقطع بين زفرات تتصاعد من مهجٍ حرّى ودموع تتساقط من عيون شكري [1] ولكن ياللاسى صدقت نبوّة المريضة عن نفسها اذ لم يمض عليها الاّ سويعات بعد ذلك حتى رقدت رقدة الابدية مفتوحة القلب مشروحة الكرب فاطبقت مدام دندولو جفنيها وجثت على قدميها وصلت الى الله تستمطر رحمتهُ عليها شاكرة لها بان اعطتها انساناً تحبهُ بعدها . ولبثت جاثية حتى حملت امها الى الضريح ونفس المركيز يحدرها الهم ويصعدها ويقيمها الغم ويقعدها واستكان [2] البيت من الوحشة لا يردد صداه الاّ الشهيق من وراء كل قلب شهيق حتى مضت على ذلك ايام فظهر الخفي وتحدث بهِ الناس فكثرت الاقاويل واشتجرت [3] التاويل.

اما مدام دندولو فمحت كل قلبها الى الكونت ظنّاً منها ان ارمان نسيها . وحين مكنها الوقت طارت الى بيت كاتب امها فسلمها الصندوقة ورجعت بها الى اقصى غرفةٍ في منزلها لتطلع على ما فيها واذ ذاك خطرت امها على بالها وابرق ذكر ارمان في عقلها فبهتت كيف انهُ انقطع عن تتبعها وخشيت ان تقع من تلك السكينة في فخ انتقام منهُ وارتجفت كالوان

(١) مغرورقة بالدموع (٢) بخع وسكن من الحزن (٣) اشتبكت

خطرًا يهددها ثم فتحت الصندوقة ولمحت فيها رسم شخص صرخت بغتة اذ تاملته ثم رسائل ثم اوراقًا مهمة جدًا اصفرت عند قرأتها وجمدت من البهتة .

— كم احسنت امي بزيجتي فليكتم هذا السر الماثل اشد الكتمان وانت يا امي الشريفة القديسة تقبلي مرة اخرى يميني ووعدي ان لا يفشى هذا الامر في حياتي ولا بعد مماتي

القسم الثاني

فينيسيا

قبل الثورة التي هبت في فينيسيا اي قبل ان تهدم اركان الامان وترتفع في القلوب امواج الهم ان عرفت تلك المدينة مركز السرور والتسلية لما طبع الله عليه اهلها من الخفة والطيش والاكباب[1] على الملاهي . غير ان الثورة بلبلت الخواطر وانزلت الخلاعة عن عرشها واستولى مكانها الهم حتى أصبح الشاب يمعى ورآ رزقه لا هواه والشيخ ورآء مستقبل بنيه لا راحته ورضاه . ومن اغناه الله منهم عن التعب فيما ذكرنا عدل عن الزيجة الى الفسق وقنع بفاجرة عن فتاة شريفة طاهرة مباهيًا اصدقاه بالزنا مفاخرًا لهم بالخنا[2] لا يكلمهم الّا بسواد الخال و بياض الخلخال وطيب ليالي الوصال ولا يخفى ما في ذلك من كيد الرفاق وحملهم على القباحة الظاهرة لا يراعون ادبًا ولا يحفظون برقع سترة فخلف الشرّ الاول شرا جسيم وعقب التاخير نجاحٌ انما هو تاخير اعظم

غير ان العوائد سهلة الاكتساب صعبة الترك فهم تركوا اشياء من عوائد سلفهم وحفظوا اشياء اشهرما فيها الزين المعروفة بالمرافع وهي ايام فرح وملاعب ومراقص يجتمع فيها الناس للاحاديث والاغاني واستماع الآلات في اماكن عمومية

سكران يرقص ضاحكًا متفهقًا ... ومتيم من عشقهِ متبولُ
هذا تزيد المطربات جنونه ... ويصيب ذاك من الحنين ذبولُ

---

(١) الميل الزائد ٢ الفساد

فبينما الناس بوم زينة في تداول الكلام وتداول المدام ظهر كي [1] على شاطي قناة تدعى الكنال غراند طويل النجاد متحجباً بدثار [2] مظلم وبرقع اسود وكمة ناكسة على جبينه يفتش عن زورق للعبور واذا بنوتيّ اقبل عليه فناداه وانطرح في زورقه وعين له مقصده فاقلع النوتيّ صامتاً الى ان قطع به الكنال غراند وتوغلا في المدينة لا يسمعان الاّ صياح القذافين مرة بعد مرة . وعند وصولهما الى المكان المشار اليه وقف النوتي وفتح الباب فخرج الراكب من حجرته وامره بانتظاره ثم ذهب وقرع باب بيت مظلم ففتحته عجوز حدباء . دعاها فتبعته واختفيا . وتوسد النوتي على بساط مرجة خضرا يصفر و يعد النجوم فوق راسه الى ان رجع المتنكر فسارا الى البيازيتا (محل عام لاجتماع الناس) على ان الكي فاتح النوتي بالكلام

— بلغني ان مستنزه سانت مارك لا يخلو من الناس كل الليل

— نعم كل الليل ياسيدي رقص ولعب وزهو

— أأرى هناك الخواتين الشريفات

— كلهن واحدة واحدة تحت البراقع بقرب قهوة فلوريان

— اتعرف اسما اجملهن اني غريب واحب الاستخبار

— اجملهن مدام دندولو والسيدة فوسكاري والشخصة ذرلينه والبواقي دونهن بدرجات ولكنّ مدام دندولو آية الكمال في الجمال كانها ملاك ياسيدي هبط من السما على فينيسيا

— لعلّ زوجها جميل مثلها

قد اهمك هذا الخبر اشور عليك الاّ تعلق قلبك بها الان بعلها جميل مثلها و يتحابان بما لا يدركه الوهم

— وهل تكون مبرقعة الان

— ما تدري فانها قلّ ما تستتر عمن يحبون مشاهدتها فاننا مولعون

---

١ رجل متقنع مستتر ٢ رداء يلبس فوق الثياب

بالجمال حتى يريد ان تتأملة ملء التأمل ولا اعم من ان تستأذن حسناء للتمتع برآها

— ما احسن هذه العادة . الى اي ساعة يطول السهر

— الى الصبح اذ لا تنفض جماعة الاّ يأتي غيرها . ناس تذهب للنوم وناس يعودون للسهر والكل يكتفون بساعتي رقادٍ في المرافع

— اولا يوجد غير هولاء من غريبات الاصل والحسن

— نعم ميلانية تدعى المركيزة برسكا وشقيقة مدام دندولو غير ان هذه عليلة فلا تخرج من قصرها

— كيف لا تبقي اختها عندها

— هي عندها كل النهار تلاحظها وتعتني بها حتى اذا نامت تركتها والاّ لما فارقتها لحة طرف

— ما مرضها يخال لي انك مخبر راوية

— مرضها مجهول فقوم يقولون انها اسنة على فرنسا والخرون . . . . .

— مالك تتوقف حدث ولا حرج . ماذا يقول الآخرون

واعطاه قطعة من الذهب

— زادك الله خيرًا يقولون انها تركت في فرساي عاشقًا لها معشوقًا

— اميرًا خطيرًا ولا ريب

— بخبر انهٔ من عامة الناس وقد منعها ابوها عنهُ قبل موتهِ وعهد الى مدام دندولو امر قيادها والولاية عليها ومن حينئذٍ مرضت الفتاة وزبلت زهرة الابتسام على وجهها الضحوك الجميل

— من الواجب على شقيقتها ان تقربها من معشوقها حذر الحمام شربها

— صحيح ولكنها اقسمت لابيها ان تحول دون اقتران شقيقتها طول حياتها وهي تبذل الجهد كي لا تحنث باليمين

فتنهنه الكي طويلا وكف عن السوال

— قد وصلنا ياسيدي الى البيازيتا فاسمع رنين الآلات وحنين الاصوات واذا لقيت مغنياً لا تنسَ فاتذك سليفانو كرمانتي اذا احببت استخدمك ما اقمت في فينيسيه

— لبيك كلما دعوت والان أأنتظرك هنا

— لعلي ارجع عن قريب فانتظر

وانبرى الكي يخترق الجماعة بالبق جرأة وشجاعة حتى بلغ الى سانت مارك ثم الى قهوة فلوريان فاستند الى الحائط واخذ ينقب[1] في كل مكان فما سمع الا صياحاً وقهقهة ضحك واغاني وتبادل الفاظ تحبب وتشوق بها ملأ اذنه دويا وما ابصر الاَّ وجوهاً مستورة واشخاصاً مجهولة .وقرعت الساعه اثني عشرة وهو يراقب عبثاً اذ سمع صيحة قائل

— هذه هي . فدنا منه وسأله

— من هذه ياسيدي

— ذرلينا اجمل نسآء فينيسيه

— باذنك بعد مدام دندولو

— هذه مدام دندولو يدها بيد الدوج[2] رافعة حجابها متمايلة بين الشعب . . .صدقت انها زهرة النسآء

ومرت امرأة قريباً من الغريب الكي حتى لمحة طرف حلتها فارتعدت فرائصه وسمعها تقول للدوج — خفي على شقيقتي المسكينة كلما ادنو منها تبعدني فاطلب التعزية في هذا المكان ولا عزآء لقلبي ولا سرور لنفسي طالما هي عليلة لعلة اخفى —

ثم رجعت الى محلها و بقي الغريب يتطلع اليها وكله عيان ويسمع حديثها وكله اذان واذا بها التفتت الى جهته وهمست ما همست في اذن رجل كي فانحنى وقبل يدها بما ارسل على ملامحها بريقات رضى وسرور.

---

١ ينتش ٢ حاكم فينسيا الاكبر في ذلك العصر

فاحتدم الغريب لهذا المشهد واندفع ويده على خنجره وسال احد مجاوريه

— اتعرف هذا الرجل البذي الذي اجترأ على السيدة دندولو

— من تراه الاّ الكونت دندولو ومن تقبلة الكونتة بهذه الرقة اليس زوجها

— اتحسب اختها مثلة

— نفس المحبة

— لك الفضل على اعلاماتك والسلام

وبعد ساعة ترك موقفة وعاد فركب الزورق قاصدًا الدوغانا ولما وصلا اليها وقفا

— افي نفسك ياستيفانوان تربح شيئاً من المال

— ايتيسر لي ذلك

— بكل سهولة . تعرف قصر الكونت دندولو وخفاياه ومسالكه المحجوبة

— لا اقل من زوايا بيننا بسبب ابنة لي مستخدمة فيه

— قدني اليه على الفور فاكثر عطاك

فانطلق الزورق كالسهم وتوارى عن العيان

(٢)

وفي اليوم الثاني دخلت امراست الى غرفة اختها وكانت ملقاة على فراش من حرير غريقة في بحر افكار عميقة غازلة الاعين باسمة الثغر منبسطة القوام يحركها تذكار او امل او كلاها فتقدمت امراست واخذت يدها

— ما سمعتني داخلة ياحبيبتي

— فارنعشت اورور

— اهلاً وسهلاً بالسيدة اشكرك على العناية التي بذلتها في شاني قد تعافيت الان بحمد الله

فاحدقت بها الكونتة مدهوشة خائفة

— لمَ تخطفين يدك من يدي بما اسأت اليك لعل تصورات جديدة داهمت عقلك اليوم

— أ كان ما يصرُ في المحلة امس

— مثل العادة فلماذا السوال

— لاني اريد ان اذهب الليلة

— انتِ تذهبين وليس لك طاقة ان تقومي

— نعم انا الضعيفة امضي

وهبت من فراشها ترقص بكل خلاعة وهمة وامرأنت تنظرها مدلهة[1] غير مصدقة بصرها

— في الامس كنت نازعة

— نعم في الامس ولكن اليوم قد طلعت الشمس لتحيي الشمس

— اورور بحياتك انك تخفين عني شيئاً

— لو كتمتك شيئاً لكنت رديئة كافرة بالمعروف بعد ما تبذلين لاجلي من العناية

— ما هذا التهكم كلميني بصح من اين هذا التغير الكامل أتبتِ عن جنونك

— اصمتي ولا تحكي في عواطف حرم عليك ان تفهميها

— فاحمرت وجنات مدام دندولومن الاضطراب وشعرت برأفةٍ عميقة على اختها ودنت منها لترجعها الى الفراش

— دعيني دعيني اعرف انك لا تحبينني

— كيف لا

— كلاَّ لانك تريدين تعاستي وانت التي تضرعت الى ابي ان يحرمني

الفة من تعشقتة وإلى حد الان تبعديني عنة أنتِ قاتلتي ولكنني لا اموت

— ويلاه ان اختي فقدت رشدها !!!

— اذهب الليلة الى المرقص وإلى سانت مارك فيرے الناس جمالي مقابلة لجمالك ويحكمون على أيّنا ابهج وارهج واكون سعيدة سعيده

— في يدك ان تسعدي اذا شئتِ فاسلي الهوى واطفي نار الجوى

—لا اسلو ولا اريد ان اسلو بل حسبي ان احيى واتذكر

يا نظرةً ملأت فوإدي بهجةً   ونفت هموم القلب والاحزانا

— برحمة امنا اورور لا توقعيني في هذه الحيرة فاشرحي لي صدرك ماذا يسرك بهذا المقدار

— حلمت الليلة الغابرة

— ماذا رايت

— الفردوس

— الفردوس جميل بلا شك

— جميل وقد ازدان بوجوده

وخرجت الى الشرفة تتنسم الهوآء الصافي وتجلى بنور الشمس ملتفتة الى الزوارق تفتش ولا ريب عن انسان

— ما احلى النهار للترويحة

— لا تخرجين اليوم لئلا تستأذي

— ما ضرّك ان خرجت لعلي محكوم عليّ بالسجن اوعساك تتوهميني راهبة

— مالك يا اختي . بعمرك ما اجبني باقسى وامرّ كلامًا

وسكتت تتأمل في اختها واذا بفكر مرّ في عقلها فقالت في نفسها

— لعلة هنا ولكن قد ارسل بعيدا فلا سبيل ليرجع . يارب ماذا جرى لها ينبغي ان استفهم

ومضت الى قاعة نسائها وسألت فاجبنها بصوت واحد ان سيدهنّ

سهرت الى الساعة اثنتين ونصف ثم نامت واقفلت ابواب الدار ولم يسمع فيها حركة الى حين افاقتها الاعتيادي

— الم تصلها رسالة من احد

— البتّة لا رسالة ولا تبليغ سلام

و بينا هنّ على ذلك نادت اورور باحدى نسائها تشير الى انها عازمة على الذهاب فصعدت وصعدت وراءها مدام دندولو وقالت لاختها

— ساستعد لمرافقتك يا اورور

— لست بحاجة اليك عندي خدمي واذا كنت كونتة من شريفات ڤينيسيه فانا مركيزة من بيت دي سانت مام

— لك الحرية فاستدعي حاشيتك ونلتقي عن قريب ان شآء الله

— آمري ان يكشف زورقي لانني اريد ان اشاهد واشاهَد اليوم

فتركتها امرأتستواوصتان يحذر عليها بحيث لا يدانيها احد واحاطت بما اقتضى المقام للامن عليها واسرعت الى قاعتها لتعلم الكونتة بمخاوفها الجديدة . اما اورور فتزينت احسن زينة وطرحت فوق ثيابها دثارًا وردي اللون واخذت برقعها في يدها والتفتت باعجاب الى المرآة ثم قالت لاحدى نسائها

— الست جميلة الان

ولم تنتظر الجواب بل نزلت في درج يوصل الى القناة . لا يكاد يعرفها الناظرون لتغيرها السريع

فريدة لو رآها الشمس ما طلعت ولو رآها قضيب البان لم يمس

واطرقت دقيقة في الارض مترنحة ثم لمعت ملامحها وضآء وجهها فركبت الزورق وسار بها بين تصفيق قوم يحفونها من شاطئي القناة و ينثرون الزهور على اقدامها داعين لها بطول الدولة ودوام الصولة وهي سكرى من الطرب تتقبل الهدايا بالشكر وترد السلام بالسلام حتى لم يبق جانب من

المدينة الاّ انسته بحضورها ولا ساكن من الحانها الا حركته بتصفيق الناس لما في مرورها ثم رجعت الى القصر تميس تيها وتختال لينًا واعدةً نفسها بالرجوع في المساء . ولمّا حان وقت العشا نزلت الى قاعة الطعام على تخير عادتها فوقف الحضور لاستقبالها وتقدم الكونت الى لقاها باسماً مستبشرًا فحيّت بالطف تحية وجلست قرب اختها

— قد دهشتم لا ريب لوجودي بينكم وصرتم يدوون عجبًا اذ تعلمون اني شفيت .

فهنأها الكل وخصوصًا مدام دندولو مع خوفها المكنون من وقوع خطر صعب لا يعلم فيقهر . و بعد العشآء ذهبت الأسرة كافة الى سانت مارك فاخذ الكونت يد مدام وازيل دي سانت مام وتخطّر بها بين النّاس يشربون الاقداح على حسنها وطلاوتها

ـ الا ترين اهل بلدتنا يقومون بحق الجمال اكثر من سكان فرساي

ـ لا غرو فقد جبلتم على الظرف والرقة

ـ تحبين لا شك الظرف

ـ افضّل الغرام الست تقول برأيي

ـ لكل امرء شأن تبارك من برى

ـ شأنك انت ان تحب امرأتك لانها غنية شريفة وافقتك وافقتها فاستنسب اهلك واهلها زيجكما ولكن انصحني بالجواب لما ربيت عليه من الاخلاص . لو ان اختي كانت مع جمالها ولطفها فتاة فقيرة لا نسب لها ولا غنى عشقتها وعشقتك حتى العبادة اكنت اقترنت بها وعرضت نفسك للهالك كما تفعل الان من اجلها أؤكد ان فمك يجيب لا وقلبك نعم

— لو وجدت اختك في الحالة التي وصفت لما تشفتها الى حدان اشاركها في كل مالي فان الانعطافات اذا لم تات من نفوس متساوية الرتب لا امل في دوامها وتملكها . ومع ذلك اذا حدث ان الكونت دندولو

اعطى اسمة الى مسكينة برفعها اليه فيقولون هذه مدام دندولو ولكن مدامواز يل دي سانت مام تدعى امرأة السائق بزفافها الى السائق ففي الحالة الاولى موازاة الرتب وفي الثانية اختلالها فانظري ان ميلك الى رجل دونك منزلة جنون وحمق

— هذا ادعاء امرأتك فلا يهمني ،احبه وكفى

— المسكينة ابدًا وهل يعوض عشقة عما تخسرين لاجله من الرفعة والمال لا سمح الله ان يسقط الغشاء عن عينك وانت في حوزتو لئلا تقتلك الحسرة ندمًا على ضلالك . ولكن ما لنا وهذه الاحاديث الان في ظروف كهذه تأبى الا الفرح تعالي غدًا الى غرفتي فابرهن لك انك حائدة عن طريق الاستقامة في العواطف والحياة

فاحتدمت غيظًا واحتفزت للجواب اذ اقبل رجل طويل القامة متنكر وابتدر الكونت بالسلام

— ايؤذن لي بمحادثة السيدة قليلاً

— لا مانع اذا شاءت . ان عادات المرافع تبيح بهذه الحرية فالخيار لمامواز يل بالقبول او الامتناع

وعند سماع صوت الغريب اضطربت اورور وخضب الاحمرار وجهها فاطرقت قليلاً في الارض ثم قالت

— اتبعة

فسدل الكونت برقعة واخذ يسعى في اثرها يناظر اورور ويراقب ما يجري بينهما من الحركات . واذ ذاك اقبلت من جهة اخرى مدام دندولو مع امرأة ميلانية تدعى المركيزة بريسكا (ذات وقائع اشتهرت في ايطاليا تقربت من مدام دندولو بسبب نكت لها كانت تضحكها حتى البكا) وكادتا تمران باورور ولا تعرفانها لو لم يعترضها الكونت

— اريد ان اكلم هتين الضحوكتين

فابتدرتة فيورينا بقولها

ـ انك لاحلك من الليل ايها الغريب واود لو اعرفك.

ـ انا اشهر من نار على علم فحدثي عن اقوى واسمى رجال العالم وراء الحاجة ولا تملي .

(٣)

قد عرفنا طبيعة امرانت انها هادئة رصينة لا تتغلب عليها البهجة الا ما ندر في مجالس الانس ومجالي النفس ولكنها زادت شجوًا وعبوسة بعد موت امها وابيها وتغير قلبها بسبب الاوراق السرية التي تلتها مما منعها عن معاشرة الناس ومخالطتها الا حين تدعو اللوازم الادبية او الفروض الموجبة فلم تعر اذنًا صاغية الى ذلك الرجل الذي سألها

ـ اظنك مدام دندولو يا سيدتي

فاجابت فيورينا رفيقتها

ـ نعم وانا المركيزه بريسكا فما مرامك منا

ـ الست صاحبة تلك القرية الدارسة بميلانيو

ـ لنا تلك القرية التي لا تزال الدموع تنضح منها ومجاري الاسى تتحدر فيها

ـ ولكم ايضًا صرح في ترامنزون يسكنه الكردينال دعرنيور

اف لك . اذا حدثتني بوقائع اهلي افزعتني فزعًا عظيمًا يحرمني النوم كل الليل ويلقيني في وساوس هائلة

ـ بل اذكر لك شيئًا من وقائعك ونسافر قليلًا بالفكر اذا لم تستائي

ـ الى اين

ـ الى نابولي

ـ الى نابولي . . . ومعي الاصفرار محياها . . . فماذا نجد هناك

ـ « هناك نجد عند بزوغ القمر زورقًا على البوغاز فيه شابة ميلانية

بديعة الحسن تزوجت منذ شهر والى جنبها رجلا فرنساويا بسمها وجمالها نائمين على مخدات حريرية يتحدثان بالهوى »

— هذا شيء عام في كل مكان وزمان ومن يعش يره

— اصبري الى النهاية واحكي

— بل اريد ان اسالك قطع هذه القصة او تنهيها عما قليل

— اخبرك اياها برمتها وتهمك

— ما اسماء اصحابها

— تذكرها في النهاية

« وظن الشاب نفسه اول عاشق هامت به عروس شهر فكرس لها حياته ولو اقتضت الحاجة لفضل الموت على نقض عهدها . وبعد الاستتراه سار الرفيقان الى قرية جميلة تدعى كستلمار فنزلا من الزورق متعانقين تبسم له ويبسم لها سكرانين من خمر الوداد

— يا حبيبي وحياة اشواقي اليك وترنة الصبر الجميل

ما استحسنت عيني سواك ولا صبوت الى خليل

على ان زوجي يعود غداً من غيابه فما الحيلة للقاء

فاثر هذا الكلام بقلب العاشق وترجح في بحر الامل والوهم حتى انه قصد ان يجتمع بها معرضاً بنفسه الى الهلاك والعار . »

— ان قصتك ايها الكي مملة فاقصص الباقي على غيرنا

— لا ايتها المركيزة العزيزة احب ان اعرف ختام هذه الحادثة التي استجلبت سمعي

وقد هم الكونتة شيء خفي ان تسمع تمام القصة من رجل فرنساوي افاق في قلبها تذكاراً خامداً مع طويل الايام حسبت انها عرفته من قبل واستدلت على ذلك من اختلافات في صوته المصنع لم تشك انها سمعتها في مكان لا تعلمه

ــ اسمعا ياسيدتي تمام الخبر

« وفي الليلة نفسها رجع بعلها من السفر فقابلته بتهليل عظيم وبقيت تلك حالة الفرنساوي ثلاثة اشهر الى ان دعته معشوقته ليلةً الى جنينة كانها فردوس النعيم بالقرب من سورنتي

وقضيا فيها ساعات طويلة قصيرة تحت سماء صافية لا يسمع فيها الاّ صوت الغرام حتى دنت ساعة الوداع

ــ ان زوجي ذاهب بي الى بلاد اعيش فيها بين رقباء لا تزداد الاّ مناظرةً لي وسعاية في حقي وقد جعلت لك هذه الساعات اسعد ساعات التنعم فعليك السلام

ــ اذن نهرب ونموت كلانا فانا لا اطيق بعادك

ــ لمَ نموت نحن ويقتل انسان نفوذ بالالتقاء »

ولما وصل الكي الى هنا قالت المركيزة لمدام دندولو

ــ ان قصتهُ لمملكة اما كفانا ما سمعناه

ــ اريد الوصول الى اخرها ولكن اذا كان يؤلمك . . .

ــ لا يؤلمني انما ينميني ولو كنت اميرة لامرت بقطع راسهِ مخافة ان اسمع كلامهُ مرة اخرى

ــ اصغي الى قصتي فقد قاربت من الانتهاء

« فغدرت بالعاشق وغشتهُ وهو لا يدري وعانقته للوداع قائلة

ــ لمَ نقتل نحن ويقتل انسان نفوذ بالالتقاء

---

(٤)

وكان العاشق طويل القامة جميل الوجه ساحر العين اسود الشعر جمعت فيهِ ايات الجمال ونشرت على راسهِ رايات الكمال فغير مندفع لا

اصل له ولا فصل ولا مستقبل تعشقها اي تعشق ففكر بقتل زوجها للاقتراب منها . ومن ذلك العهد ما خرج زوجها قط من منزله الاّ تهمة بقلب من حديد مؤجلاً كل يوم ذنبه الى الغد . واتفق ان المركيز (بعلها) خرج ليلة يتمشى في شوارع نابولي والشاب ورآه بظنة متبعاً بغير امرأته و يريد قتلة في مذنبه حتى وصلا الى»

ــ استودعك الله ايتها الكونتة فان من اسرار كلامه ان تبغ الاعين الوسن فانا اتمنى لك الصبر الى النهاية لان مثل هذا الرجل لا يصلح الاّ للقصص

فقاطعها الكي قائلاً

ــ و يصلح ايضاً لكشف المستور عن خفايا الامور . اسمعي

«حتى وصلا الى طريق بوزيليب والفرنسي يعد نفسه بالتخلص منه بعد قليل غيران القتل صعب عليه ارتكابه لان ذلك الشاب الذي اوصلته النساء الى الذل والهوان ولد عزيزاً كريماً»

على ان المركيزة ربما كانت دعت وما ذهبت لان كلام الكي اوثقها برباط ما عرفت السر فيه فانتظرت سامعة كل تفاصيل القصة

«فجثم المركيز بقرب باب على طريق بوزيليب والعاشق وراءه قادراً على اهلاكه ولا يقدم لان تنكر المركيز وكونه وقعا في نفسه فاراد ان يعرف تبعة امره و بعد هنيهة فتح الباب وظهر للعيان رجل وامرأة . العروس نفسها وامير نابولتاني اجمل واغني كبراء قومه متعانقين في ضوء القمر يتلفتان خشية الرقباء ثم سارا يتحدثان فقالت له

ــ عن قريب اصبح لك وانت لي

ــ كيف ذلك

ــ عندي سابق علم اننا سنرتبط حلالاً بالزيجة فنعيش كلانا .

ــ لو تم هذا المنام يا عزيزتي لسعدت كل السعادة

وما اتم كلامهُ حتى انقض عليهِ المركيز من مكمنهِ وطعنهُ طعنة خنجر اسقطتهُ صريعاً — بل تشفي كل الشفا يا نذل يا بذي»

واحست مدام دندولو بذراع المركيزة يرتجف تحت ذراعها فقالت

— هذه قصة محزنة لا تناسب مقتضى الحال يا حضرة الكي ولا تهمنا

— انك ترين عن قريب ما اهم قصتي

ونسيت اورور انها بحضرة اختها فسالته عما جرى

— «ثم جرى ان الشاب فهم خداع الامرأة التي احبها وارتاع من الذنب الذي سهلت عليهِ ارتكابه فحضر امام المركيز بعد موت الامير

— لا تخف يا سيدي لا تخف رجلاً سرك عنده فانا ارثي لك واحترمك وادافع ما شئت في سبيل اخفاء امرك غير اني احب ان اصطنع معك جميلاً فاعلم اني كنت تابعاً لك عازماً على قتلك بامر امرأتك الخداعة لا متلكها جاهلاً ان في نفسها اهلاكي واهلاكك لتتمتع بهذا الامير الشقي

ولما فرغ من كلامهِ ولَّى مدبراً ولم يلتفت مرةً واحدةً الى التي جعلتهُ في الهوى مثلاً»

— قد نسيت شيئاً ايها الراوية البليغ . فاني سمعت هذه القصة ايضاً . ان ذلك الفرنساوي كان لقيطاً بذياً لا علم له ولا ادب ربي بين اناس همج فاخذ كل عيوبهم . قبيح الصيت لصاً سفاك الدماء وفي الجملة وحش بصورة انسان

— هذا يدل ايها المركيز انهُ استفاد حكمةً وادباً من التجربة . والايام كفيلة بالتربية لا الناس هذا واذا شاءت الكونتة اخبرها احدوثة اخرى تهمها نتيجتها فتفهما ما معنى هذه الاشاعات التي تظهر بلا روابط ولا ضوابط . اما وجودي في فينيسيا طلب لغاية عظيمة وظني ان هذه الليلة فاتحة امالي

— اعرتك السمع تكلم

— فاتبعوني الى فرنسا وطنك

—ووطنك ايضاً وان كان لفظك فرنسياً محضاً

—ما يدلك على ذلك

—سابق معرفة قديمة العهد مبهمة في عقلي

—ما علينا وهذا كله « تمثلي انك في فرساي صباح يوم قارس البرد يتزلج فيه الرجال على قناة جمد ماؤها فيها متزلج لا ميراث له ولا غني وفتاتان جميلتان كل الجمال »

فقالت مدام بريسكا

—اظنه نفس العاشق الذي حدثتنا عنه

—لا امي احداً الان الى النهاية

واخبر الحادثة التي ذكرناها في البدء زائداً عليها اشياء تميا لما في نفسه من تلك الرواية

« ومن غرابة تلك الامرأة انها مع طيبة قلبها قبلت رسائله واحيت آماله واستمعت ابتهالاته واوهمته انها رضيت بها فطأً من فكره بالحصول عليها ولا سيما اذ علم انها كانت تختبيء لتراه واذا ابصرته امتقع[1] وجهها دلالة على حركات قلبها. حتى اذا ملت من تلك الالعوبة طرحتها الى جانب لا تسأل عن محبها وهو مريض. وكاد يقضي عليه الاسى لما علم انها اقترنت بغيره ورحلت عن ديارها الى بلاد قاصية ولكنه عاش للانتقام وليذكر ابداً تلك التي صرمت حبال سعده »

وما اتم كلامه الا اعترض رجل بينه وبين الكونتة باسرع من رشقة سهم وقال له بصوت مرتجف

— امّا تبرهن لي ما اخبرت او تعاقب على اهانتك للكونتة

— اني مستعد لاجابة طلبك على ان تبرهن لي انسان لك حقاً بالسؤال

فرفع المعترض برقعه عن وجه اصفر كالموت واذا به اندريا دندولو

1 تلون

— لا يخفى الكونت انني اخاف غدر طوّاف [1]. فبينهما فلا نجمع مني شيئاً الا خارج البلد

— اين تظن؟

— في البارجة الفرنساوية التي ارست البارحة في ميناكم

— لا باس من الملتقى فيها

— بحياتك يا عزيزي اندريا اسمح لي ان اتبعكما لأُدافع عن نفسي من اراجيفه

— مدام ابن اختك

— سلنك اياها فاذا عملت بها

— انها ممسكة بذراع هذا الرجل الذي قد عرفت اسمه فاسترديها منه

(٥)

وللحال قشع [2] الغريب برقعه فبرقت اعين ارمان دي تاريل ولمعت صفحته فصرخت الكونتة كانها فقدت الرشد عند منظره وجذبت اختها اليها مرتجفة

— يا ولدي يا ولدي اياك هذا الرجل

وزاد ذلك حنق الكونت فاندفع عليه كالغضب

— هيا بنا . وانت يا امرانت سأستدعي نساءك فترجعين ومدام وازيل دي سانت مام الى القصر

---

(١) هم ثلاثة حكام كانوا مجهولين الا يعرفهم الا المجلس الذي انتخبهم . يطوفون في كل المدينة لتلقن الاخبار واستماع ما يقال عن الحكومة وكان يساعدهم جواسيس يؤدون لهم كل يوم حساباً عما سمعوه من المهام فيقضي الحكام الثلاثة على المجرمين او المشتبه بهم تارة بالدفن في آبار معدة لذلك وتارة بالقتل واخرى بالحبس في دهاليز تحت الارض (٢) كشف

— دعني اتبعكما بجهاتك

— أ للنساء حق في مداخل كهذه

اما اورور فغشي عليها بين يدي اختها بسبب الضعف الملم بجسمها فاجتمع عليها الناس لمعالجتها واغتنم الكونت الفرصة فاختفى بخصوو حتى اذا ذكرتها امرانت رفعت راسها خائفة ولم تجدها . فدعت المركيزة بربكا

— انت مخلصة ومعينة ياعزيزتي المركيزة دونك اختي ودعيني الحق بها لدفع مضارّ جسيمة

— احذري هذا الرجل ولا تمتنيمي[1] له اقصيه عن قنيصا فبمقدار ما يبعد تقرب منك السكينة والسلام والا استهلكناه بامر الحكومة

— مدام لا تمس شعرة من راس ارمان دي ناربل انني احميه من كل ما يلاقي حتى من زوجي

فاختبلت[2] المركيزة لهذا الكلام وصمت على كشف ما وراء من التعمية . فتبرقعت مدام دندولو واسرعت باختراق الجموع لا تبالي بالهزء والضحك الى البيازيتا ثم انطرحت بزورق كانها مقطوعة الرجاء . وسألت القذاف اذا كان قد رأى البارجة الفرنساوية

— نعم نعم رايتها وزرتها ياسيدتي

— اتقدر ان تطير بي اليها

— بعشر دقائق

— لك دينار زيادة اذا وصلت قبل ذلك

— سمعًا وطاعة

واطلق زورقه بسرعة تخيف من لم يعتد على مثلها . غير ان الكونتة لهت عن الخوف بانشغال بالها واهتمامها الكلي بمنع ملتقى وخيم العاقبة عليها وعلى بعلها

---

١ تأمني ٢ تشوشت

ولما قاربت البارجة نوشدت(١) عن اسمها

— انا فرنساوية ولي حاجة بالربان(٢)

— قد نام ياسيدة

— الم يأت من قليل رجلان مستتران؟

— ما اعرف ياسيدة

— افي المركب احد من قدماء محرس الملك يدعى الموسيو دي ناريل

فاجاب اخر

— نعم ياسيدتي وقد رايته نازلاً الى غرفته مع احد اصدقائه

— ابتهل اليك ان تهديني اليه لمهمة ما

فقال في نفسه — ما اشقاك ياناريل اكل يوم حادثة جديدة —

وفي اسرع من لمح البصر رفعت الكونتة الى سطح المركب ثم انزلت الى غرفة ضعيفة النور رأت فيها زوجها ودي ناريل يتحاجان بكلام متقطع من غلي الحقد في صدريهما يوشك احدهما ان يثب على الاخر

— الحمد لله قد وصلت في اباني(٣)

فصرخ الشاب صرخة دهشة

— امرانت. . !!! امرانت!!!

وزاد الكونت

— كيف . . . . تجسرين . . . .

— ان في الحياة ظروفاً تحكم بتتميم عمل قبل الاخر وقد دعاني فرضي الى هنا فلبيت

— ويلكِ امرانت قد وقفتِ موقفاً يلقيك في بلابل سامه . يقتضي لي قتل هذا الانسان او اعدام نفسي لانه اجترأ عليك فاذا تحققت صدق قوله متنا جميعاً وان ظهر كذبه فما ادري قصاصاً كافياً لجريته

١ سولت ٢ القبطان ٣ وقتي

— قد صدق ياسيدي

ـ ماذا تقولين

— قد صدق . . . عرفته قبل زفافي عليك وأُغرم بي فأُغرمت به ولا انكر مكاتباته اليَّ ومخاطباته لي . قد تملك قلبي فلا يبارحه ابدًا بعلاقة بيننا لا تنفصل «و بعض الحب لا يمحوه ماحٍ» ولو انني قسماً بالله احببته كما احببتك لما رضيت بغيره فما انا كما علمت ممن يدنس عرضها او يهمل فرضها بل ممن يحببن مرةً واحدة. وانت الذي اختارتك نفسي فاصبو اليك «ما دامَ حبلُ حياتنا موْصولاً» .

— كيف تكتمين سرًّا ماضياً عن بعل نشر لكِ كل طوايا قلبه ولو ان سرك بريء من الشبهة كما تدّعين لما اخفيته

— اخفيته عنك باوامر شخص لا اخالف رسومه ولو قدمت لي كنوز الارض كلها . وان اظهرته فما اخبرك الاَّ عن حلم زال اسرع من البرق في مقام ضيق ولن يعلن ابدًا لانَّ سلامتي وشرفي وعمري متعلقة به الاَّ فدى لك من هلاك تقع به . فثق بكلامي واعلم انني لست مجرمة

— تحبين هذا الانسان

ـ احبهُ واعيد عليك انني لست مجرمة احبهُ وقد نكثت عهوده وولاءه

— قد سلبتِه اخته ونفيته الى بلاد قاصية وسعيت بنجاتك من وجوده أَو ليس ذلك من الخوف والحسد . . . !!!

ـ صحيح ما ذكرت غير اني احبهُ ولا اخشاه ولا اغار عليه

وكان ارمان يسمع منذهلاً تلك الاقرارات الجسورة السرية من امرأة طالما عذبته ولولا تلطفها مع الكونت لجاز له أن يؤمل بالحصول عليها . غير انه اضمر للكونت كيدًا كظمه بكل عناء .

وكان الكونت اشد منه احتداما فقال

ـ باذنك ايتها الكونتة اننا لم نفرغ من حسابنا بعد فدعينا

— لا ادعكما تريدان برازًا انما هوائم لا يبرءُ مرتكبهُ . من اساء منكما الى الاخر فينتقم منهُ . واعلم ايها الكونت ان التي شاركتها في حبانك انت اليك اطهر من يوم عادها ولم تحوّل قط عنك فكرًا من افكارها فانس شكوكك المهينة من كل ارادتك وارجع فان هذا الغريب يسافر ولا يشاهد اورور فمن المستحيل ان يتوصل اليها ما دمت حية

— زدتني شكوكًا وظنونًا فانت حاسدة لاورور

— احب شيء اليّ ان يتزوج ارمان باي فتاة كانت الّا اورور على انني اساعده اكثر من طاقتي لان سعادتهُ سعادتي والله يعلم . . .

ورمت عليهِ لحظًا عزّز فصاحة كلامها حتى غلبها على قلبهِ فشعر دندولو بتغيير عواطفهِ ومدّ يده الى ارمان

— الا تسافر غدًا

— كلّا انني اقيم هنا ما شئت

— بحنوي عليك وميلي اليك ياعزيزي ارمان سافر ولا تتوقف دقيقة عن الرحيل لئلا تجلب على راسي اخلاق الدنيا ومصائبها .

— ارى يا كونتة انك

يعطيكَ من طرفِ اللسان حلاوةً ويروغ منك كما يروغ الثعلب

لان افعالك تكذب اقوالك فما اظن الكونت قد صدقك . وما عندي شك انك تخادعين كلينا لامرٍ ما

— والله والشرف وتربة امي ما نطقت الّا الحق

— ابن قول الحق وانت مبغضة لي وقد اظهرتِ ذلك ومتظاهرة به . عبثتِ [1] بي اشكالاً واستنفيتني الى بلاد بعيدة كاد فيها ان يقضي نحبي لولا ان البرنس دي كونتي شفوعي . . . ولعلهُ ابي . . . رحمني وخلصني من الشدة . ثم نمت مرتاحة «وتركتني للفرقدين جليسًا» [2]

(1) لعبت ٢ اي ساهرًا معذَّبًا

— ماحمك الله يا عزيزي ارمان . ان كلامك هذا يلحق بي الما يجهدني (١) ولا يسوء لي منك انني احبك ولا اسلو مودتك غير ان الله قد حكم علينا بالافتراق فلا بد من سفرك ولا مندحة عنه

سافر صاحبتك السلامة اينما سرت . واذا احتجت الى صديقة تعينك او مسعفة ترفق بك فادعني الى اي بلد اقمت به وانا اطير اليك بالنصرة والمساعدة

فاغتاظ الكونت لذلك وقال

— ما هذا السر . من اين هذا الحنو والاهتمام بغريب اريد ان اعرفه ولا استطيع الاكتفاء بتلويحاتك

— العجب يا اندريا من اصرارك على تذنيبي مع اني لم افقد قط حسن امانتك بي . والسر الذي في قلبي ولو تهددتني ما تهددت وتوعدتني بما توعدت . لا يفشى . على ان ارمان سيسافر ولا نعود الى مثل هذه المشاكل

— واذا سافر وودعتك اميال قلبك معه . . . .

— كل ما لك عندي من الهيام يبقى لك وماله من الشوق والحسرة والتحبب عليه يبقى له . وانت يا ارمان سافر حماك الله ولا توءمل باختي بل دعنا نعيش بمقتضى اعمالنا والتزاماتنا . اتبع طريقك ولا تقطع علينا الطريق انتبى النقمة التي وعدت بها نفسك والجئني بطاعتك الى معرفة جميلك وارجع الى المقام الذي عزلت منه واظهر انك اهل له وانهم ما قدروك قدرك عن جهل . آآ نطرح على اقدامك فترضى

وانحنت تريد الركوع . مائلة العين كانها ترجو

فذاب قلب ارمان واسرع فرفعها بيد وستر وجهه بالاخرى يمسح دموعه الكريمة

— كفكفي دموعك انني اسافر

---

١ يتعبني

— بدون ان ترى اورور

— كما تشائين

— ثم لا ترجع ابدًا

— ابدًا

— اشكرك يا ارمان شكر مستأمنة لوعد كريم واعدك بحماية الكونت. فاسرع بالسفر واذهب الى حيث وددت على ان لا يكون هنا وانا كفيلتك[1] كل ساعة وفي كل مكان وعليك السلام

---

(٦)

ولما فرغت عمد ارمان الى يدها فقبلها وهي راضية تقرا في عينيها آية القبول والصفاء. فعاش الامل في نفس ارمان ومات حسن الظن (رحمة الله) في قلب الكونت فقال

— لك اربعة وعشرين ساعة للخروج من فينيسيا و يومين للابتعاد عن تخوم حكومتنا وبعد لا تكفلك حمايتي

وقال في نفسه — ليته يبقى اكثر من ذلك فلراه كما اشتهي ... في سجن لا يخرج منه الى الممات

ورجع الزوجان ثم ركبا زورقهما وقصدا المدينة وفي منتصف السير القت امرانت راسها على صدره وقالت

— الا تثق يا حبيبي اني اميل اليك من كل قواي واكثر من كل العالم . الا امانة لك بجربني حتى لا تأذن لي بان امنع غيرك من وجدي وشوقي لماذا لا تثق بي وتحبني كما اثق بك واحبك

فاحدق بوجه امرانت واستجلى كل حالة نفسها فتاكد لطفها واخلاصها وسمع صوت قلبها . وصوت الحقيقة لا يقاوم

---

١ كفله قام باسباب معاشه

— انني واثق بك يا حياتي ومن الان فصاعداً لا اسامح في فكر يسوءك ومهما كان السبب الذي يضطرك الى السكوت اجلّهُ اذ ليس الا حميدا . لنضرب صفحاً عن حوادث هذه السهرة ونجمع عنايتنا على اورور وفي اختي لانها اختك حامت بارمان دي تاريل فسقطت بوهدة لا يمكننا الاَّ ان ننتشلها منها

— نعم ننتشلها فتسلم ويسلم سعدنا من الكدر . واحمد الله انك الان عرفت من السر الذي ما جسرت ولا اجسر ان افشيه ما يحملني مراراً على المخاطرة بنفسي كما فعلت الليلة . لكني ارى نوراً عظيماً في غرفة اورور . ما عساه يجري . اللهم اهدنا الى خير سبيل .

فعانقها الكونت ونزلا من الزورق وصعدت تواً [1] الى غرفة اختها فرأت كل نسائها مجتمعات واختها تنوح بين يدي المركيزة بريسكا — دعوني اتبعهم اريد ارى واعلم — وعند ما ابصرت اختها والكونت هبت واقفة وتمشت نحوها

— ما فعلتما بارمان . قتلتماه يا للاسى . . . يا ويلاه . . . ياطول حزني

— لا لا ياعزيزتي لطفي روعك فكل شيء على مرامك

— اريد ان اراه . . . شلت يمينكما انكما قتلتماه

— قسماً بحياتك وتربة امنا ياعزيزتي اورور لم يصبهُ مكروه قد سافر من فينيسيا

— هذا افك [2] وخداع انهُ لا يسافر قبل ان يراني

— الجأناه للرحيل

— الجأتماه ولا يرحل . انهُ يهواني ولا يذهب دوني وقد قالهُ لي لكنني اخشى ان يكون مطروحاً في مضيق ما او ملقياً في هاوية او منعزلاً في احد اقبيتكم

---

١ المعروفة عند العامة براسّا ٢ كذب

— أؤكد لكِ بشرفي و باعز شيء عليّ انهُ حر مطلق ما مسهُ شر

— لا اصدق الا ان اراه

— اذكريه يا اورور أوامر ابيك عند موته ونصائح امك اذكري تضرعاتي اليك وحنوّي عليك. لاتدنسي شرف اسمك وتحطي قدرك بافعال سيئة انت ارفع منها شأناً . انهُ شقاء لك و بيننا و بينهُ وادٍ لا يجاز

— ما يحملك على مثل هذا الكلام الاّ حسدك و بغضك لي انك تفضلين ان اموت من ان اقترن بهِ فانا لا اموت بل ابقى لعذابك يا معذبتي ولتمزيق عرضك امام زوجك والناس . يتوهمون بانك عفة الازار خفيفة من الاوزار[1] كأن قد انزل على عيونهم غشاوة ولكنني ارفع الستر واكشف عن المعمى .

— تكلمي ياعزيزتي ولا حرج . عسى يخمد ما في نفسك من اللهب والحرقة

— يامرآئيه مخدوع اندريا بك . الا اعلم انك تميلين الى غيرة . الم احضر ارتباكك وتمنعك عند ما طلبت امي زيجتك . أكنتِ تحبين ارمان املا . الم تبكي طول الليل وجداً عليه وهياماً بهِ . كفاكِ دهاناً[2] لا تخدعين بهِ من يعرفك

ومدت امرانت يدها للكونت فتردد في تقبيلها لان هذه التفاصيل اثرت فيهِ بما ظهرت دلالتهُ على وجهه . فاتمت اورور

— و بعد رجوعك من ايطاليا الى فرنسا لماذا خنق قلبك وحملتِ ابي ان يلعنني اذا تنازلت للتزوج بهِ . واحسرتاه كنت آمنة اعترف لك بكل عزائمي ومقاصدي فتسدين الطريق على اتمامها وزيدي على ذلك انك واجهت ارمان بالسر مواجهة غاب بعدها واختفى

فحنق الكونت حنقاً شديداً

---

[1] الذنوب [2] مرآآت

— اذكري يا امرانت انك لست وحدك هنا وسكتي هذه الفتاة اكاد اجنّ من كلامها

— لا باس يا عزيزي . ان المركيزة عاقلة حكيمة تعرف طيش الصبا ونتائج الحب . فالسكوت اولى

فحنت المركيزة راسها تاكيدًا لما سمعت . وزادت اورور

— نعم كلكن عشقته وارمان لي وحدي . لي وحدي هذا الرجل النفير الحقير وقد سمعتنّ ورآه كاميرتشرف به النسآء لانه اشرف وابقى راشجع شبان عصره ولا يحتاج الاّ الى نفسو ليكون المتقدم فيهم

وكانت امرانت مستكينة[1] حزينة تذرف دموعًا حرّى — ارشديني يا اماه في حيرتي — والمركيزة تعض شفتيها من الحنق كاظمة كيدها واورور تلتفت اليها شزرًا معجبة بالفوز عليها

— تتعذبين الان يا معذبتي يا جارتي الى فينيسيا بلد الدسائس والفخوخ وبودك ان لا اراه قلقة غائرة عليه مني ولكنّ قلبهُ عندي . وقد زارني في هذه الغرفة ليلة كنتِ في اليازيتا جالسة بقرب الدرج تشكين له رفضي لعنايتك وتملصي من وجدك . فحدثنا ساعات الذّ من العمل واسرع من برق امل

اوقات انسي قضيناها فاذكرت الاّ وقطّع قلبَ الصب ذكراها

وسيرجع بلا شك فاشاهده مرةً ثانية ولا يزداد حبنا الاّ عزةً مع المصايب

— حماك الله يا اختي . كيف . . . أأخللتِ بشرف اهلك وسودت صفحة طهارتك

— اتظنين اني ابيع شرفي بثمن بخس كهذا . قد ذكرت لعنة ابي لي ووصايا امي لك في حقو وانتظرت الى ان يفتح الله بابًا للفرج . وعما قليل تعرفين مستقبلي فاما ان ترضي بزفافو عليّ او اتخلص من رذيلتكم[2]

---

١ مستذلة من الكآبة ٢ عبوديتكم

ولا عجب من الجنون الذي اصابها في حب ارمان لان من الهوى ما لا تنصر قوة فعلو على القلوب وتمكنه من العقول حتى يدلّهما[1] وكيف لا تحب رجلاً جمع من الجمال والشجاعة ونشاط الهمة ما لا يجتمع في غيره . رجلاً استمالها اليه بقدرة غريبة حتى لو اراد لعبدته راكعة باخعة . فبقيت منتظرة له غير شاكة انه يقتحم الموت ويدوسه في جنب وصالها مؤمنة به وبميله اليها ولكن يا للغرور . جهلت انه مستخدمها آلة للتوصل الى امرانت والانتقام منها . سمّ قلبها الصحيح وهدم اركان مستقبلها السامي . وعليه لم تتأخر امرانت لدرايتها وخبرتها عن استجاد واسطة تنقذ بها اورور من لحوق المحذور وارتكاب المحظور[2]

ونامت اورور بعد تشنج اعصاب ولهيب حتى منهوكة من العياء فخرج الكونت والمركيزة من عندها غفلة والتفتت مدام دندولو فلم تجدها

(٧)

وكانت تلك الليلة ليلة اختباط في بيت دندولو . على ان الكونتة قابلت زوجها مقابلة ازعجت كليهما لتجدد شكوكه فيها وامتناعها عن مرضاته موجهة كل افكارها الى حالة اختها وسبيل اخلاصها من العار اتماماً لوصاية امها بها .

— لا شك يا اندريا ان هذا الرجل ما توصّل الى قاعة شقيقتي الا من الشباك لان كل مخابي القصر ومداخله محروسة اشد الحراسة . فيجب ان يقام قذاف على القناة تحت الشباك حتى اذا خطر أطاري تنبهنا التلافيه دفعاً لزيارة ثانية

— اختك يا امرانت تحب ارمان دي ناربل وهو لا ريب يحبها وقد اقتحم الاهوال غير مرة ليتقرب منها . فلمَ لا تزوجها ونعوض بالذهب والمال عما ينقص ارمان من النسب وكل الاميرات تكرمة لجماله المفرط . انني

---

١ دله . فتن ٢ الممنوع

ارى من[1] الجور ممانعة اتصال احدهما بالآخر مع علمنا ان الغرام واثق كليهما بقوة لا تضعف وجاعل سعد الواحد من سعد الثاني وحياة العاشق من حياة المعشوقة. فما قولك

— لا حاجة الى الجواب. قولي ان سؤالك ليس الا حيلة دنيّة تستجلي بها غوامض داخلي من ارتباك وجهي لما عندك من الريبة فيَّ. وقد وقفتك من احوالي على ما استطعت فلا أزيدك شيئاً ولو اسلمتُ الى العذاب والموت

فلطم الكونت جبهته بيده وخرج من القاعة مغضباً. فدفعت الباب خلفه عوضاً عن استرجاعه وتلطيفه وصرفت نساءها كلهنّ وبقيت وحدها في ثياب بذلتها[1] على شرفة[2] القصر حزينة مبتئسة من ترك الكونت لها بدلاً من مساعدته لها بمشوراته وايناسها بحضوره ومن شكوكه فيها كلما هب نسيم جديد من الاسباب

وذهب الكونت فاقام ستيفانو كرمانتي حارساً على القناة وهو جاهل ارتباطه مع ارمان

اما الكونتة فلبثت متطلعة الى القناة الجارية تحت القصر لامعة كالسيف في ضوء القمر واخذت تفكر في ظلم زوجها فتارة تحنق عليه وطوراً تعذره لجهله سبب كتمانها. وكادت تذهب اليه وتسترضيه اذ وقع بصرها على زورق ستيفانو راسياً تحت الدار وفيه رجل رشيق القد بزيّ نوتيّ يكلم ستيفانو ويشير بيده الى الشباك متاملاً في القصر وكيفيّة بنائه وهندسته فوقفت تنظر اليه واذا به قد وقفز من الزورق الى الارض ثم اعتلق على تمثال بارز واخذ يتسلق على نواتيء[3] الحائط بفنّ غريب لا يثنيه التعب ولا تروعه الصعوبة

همامٌ من الفولاذ قدَّ فؤاده   يرى الهول كالماء الزلالِ فيشربُ

فجمد الدم في عروق امرائث وارتبط لسانها اذ علمت انه ارمان

---

١ ثيابها العادية ٢ المعروفة بالبلكون ٣ صنائع النقش الظاهرة الى الخارج

— اللهمّ احفظة واوحِ لي كيف ينبغي ان اتصرف معهُ—وما زال مجاهد حتى امسك بحديد الشرفة فنشب واذا به بقرب امرانت تلمع ملامحهُ بجمالٍ لا يعرف لهُ مثيل حتى في ايطاليا بلاد الجمال . فافتلتت به من ام دندولو وبخرت صبرة اختها لاستهوائها به . و بقي ارمان خافضاً راسهُ امامها من الخجل والوجل . فبادأته بالكلام عوضاً عن ان تطرده وتعهنه نامية ما يتهددها من الخطر مطيعة لعاطفة في قلبها لا تقصر من الايناس له والاشفاق عليهِ

— ارمان لمَ هذا الجنون . ما غرضك من المجيء الى هنا . لماذا انت باقٍ في فينيسيا . اتريد هلاكنا ومن ثم حلول اللعنة عليك

وكان ارمان كالسابح في بحر سعادة فقال كانهُ لم يسمع

— اشكر الله الذي جمعني وإياها وحدنا في هذه المدينة البديعة . في امرانت بعينها اكلمها فلا واشٍ ينقل ولا رقيبٌ يبصر

يا ليتني كنت لها صليبا اعيش منها ابدا قريبا
ابصر حسنًا واشمّ طيبًا لا واشيًا اخشى ولا رقيبا
ارتع منها ابدًا في الصدر

فرفعت عليهِ نظرها الساطع

سبحانَ من اودعَ في الاحداقِ سوادها الساري الى الآماقِ
وزينَ العيونَ بالاشراقِ مصبوغةً بصبغة الخلاّقِ
كفضةٍ قد موّهت بالتبرِ

— الى متى تذكر امرانت

— الى ما شاء الله فلا شيء يسليني اياكِ . اهواكِ كما احبي وهيامي بكِ هو اخر عاطفة طيبة بقيت في قلبي فلا تحوّليه الى بغضٍ لئلاّ تجعلي مني نمرًا ضاريا يستعاذ بالله من أولقه[1] وشرّه

---

1 جنونه الشديد

ـ بيننا وبينك يا ارمان حاجز حصين لأسباب لا يعلمها غيري فارتدع عن غيك «واطلب الى غير الغرام سبيلا»

ـ يا عاذل العاشقين دع فئةً اضلها الله كيف ترشدها
فما يجيك[1] الملام في همٍ اقربها منك عنك ابعدها

اشتريك بدمي «وكنا دماء العاشقين تباح»

ـ ليس لي ارادة الوهلك بها ومع ذلك لا ينبغي لي ان احتمل منك كلاماً لا يستحب لعلك لا تدرك ان الابتعاد عنك فرض علي واجب وقلبك يفهم مراد قلبي

ـ لا لا لست كما تتوهمين ولذا تقودينه كيف طاب لك الهوى طمعاً بما لك عندي من الحرمة والغرام. لخير لي ان اقتلك او ان اقصيك[2] عمن فضلته علي من ان انغرب عنك. نعم انا صبور صبور للغاية ولكن الصبر كل يوم ينفد والشوق والامل يتجدد. فلا بدَّ لنا من نزال اقل بلاياه الموت نزال اقهرك به بارادة وقوة مخلوقتين في فطرتي[3] فتلعنين اليوم الذي رددتني به خائباً ولات حين مندم

ـ يا لك من شقي رديء لم التهدد والتوعد وهما لا يحلان عقود مقاصدي ولا يزيلان الحكم المانع لك من مواصلتنا. والكلام الذي ظننته مخوفاً لم يؤثر في قلبي باكثر من الحزن. لست اهابك يا ارمان بل ان راحتك من راحتي. فدى لك نفسي ومالي وكل ما يخصني دون واجباتي وحقوق بعلي. الا يكفيك ذلك

ـ لا تخشين وعيدي وقد اوشك ان يتم. فان اختك في حوزتي تنتظر اشارة مني لتدوس تحت اقدامها حرمة رتبتها وجنسها. سأستعبدها انا لا مني الامر. على انني استخدمها كآلة للتوصل اليك حتى انا لبثت صماً على توسلاتي كعادتك فجعتك بشقيقة روحك قبل ان اصيبك بنفسك

---

[1] يفيد [2] ابعدك [3] خلقتي

— صه [1]. قد ارعدت فرائصي

— اسلب اختك وعلى الاقل اغير فيك هذه العاطفة الباردة التي تكرمين بها عليّ كاحسان لاني لا احتمل الفتور في الحب كما اراك ِ الان حزينة تكلميني بتكلف

— كم انا معذبة يا ربّاه

— تتعذبين يا اكرم النسآء والطف ن تتعذبين لاجلي ولو وددت ِ لاصبحنا سعيدين. يا امرانت ماذا اعمل كي افوز منك ِ بكلمة وعد ولو بعيدة العهد. تغيرين بها حالي من الردآءة الى الجودة ومن الثورة الى السكينة. ألم تضعي ليلة امس حدّاً لجنوني وتهيجي بكلمة اخلاص

— لا احبك قطعاً كما في نفسك

— يذهب كلامك بعقلي فان اصررت ِ اقتل بعلك

— يقتل بعلي ولا احبك كما في نفسك

— ولكن تدّعين الهيام بي وترميني كل ساعة في وهدة قعرها الجحيم. ارحميني رحمك ِ الله وارحمي نفسك وزوجك وارورو

ثم سقط على قدميها لا تمنعه قسوته وصلابة قلبه من البكآء فرفعته امرانت وقد صبغ الاحمرار وجهه و برقت عيناه من خلال الدموع .

— يا امرأة لا تفسر شؤونها اتلك صناعة أم هذيان اشفقة أم وميض امل بعيد امرتِه في عقلي. يا ليت هذه الاظهارات تقتلني الان انا عنبها الهجر لاني اموت اذ ذاك اصعب ميتة ممزقاً قلبي الذي مال اليها ومقطعاً احشاي

فلم تجب على كلامه بل اخرجت من جيبها رسم امها وقبلته وهي تبكي عقود درر على خدي عقيق. وكان لها طبع طاهر نقيّ ورحمة للصابين وعذر للهائمين. فاخذت ترشد ارمان انصح ارشاد غير منتبهة لما عساه يجري من

1 اصمت

الشرور اذا دهمها زوجها وحدها في تلك الساعة من الليل مع رجل حتم عليه بالبعد عن امرأته واضمر له الحيل والمكايد

وسمعت اذ ذاك صوت طير في داخل الدار فقالت

— اسمع يا ارمان كيف ينوح هذا العصفور و يتقلق على غير عادة فهو يعلم حالتي و ينذرني بوقوع خطر شديد . ان زوجي قريب منا واذا شعر بوجودك يقتلني لا محالة . فارجع ولا تتباطأ

— ايقتلك وانا حاميك يا امرانت يعلم الله اني احطمه بضربة واحدة فاستامني لقوتي تخلصكِ ولحبي تجيبك .

— ارجع ناشدتك الله

— لا ارجع حتى تعيّني لي منتاي ولعدني باستدعائي منه عما قليل لانّ غاية رجائي ان اصل اليكِ . اخبرتني ان سرّ حياتي دفين عندكِ فزدتني هياماً بكِ . انتِ سعادتي ومحط امالي ولا يهمني من الدنيا الاّ انتِ

— ارمان بتربة امك . . . اذهب رضي الله عنك

— أآمل ان اراك

— ما ادري . . اذهب ولا تطل الاقامة

— اذن لا اذهب

— يخال لي اني اسمع مشياً بالدار . . يا ربّاه . . ارمان بحياتي سر الان وانا استدعيك

— عديني بان اشاهدكِ فيما بعد

— هذا مستقبل واكثر من مستقبل

— اذن ابقى ولا حرج عليّ ما دمت اشاهدكِ

وفتح في اثناء الحديث باب خفي وانساب منه شبح[1] ملابس بيضا الى وراء امرانت فامسك بيدها بغتة وقال

---

[1] خيال

— اتنكرين بعد انك مغرمة به

فصرخت امرانت

— يا رباه لم افطن لاخفي ....

وركضت اورور نحو مدخل الغرفة الكونت تدعوه بصياح عظيم

— ياكونت دندولو . ياكونت دندولو هيا تاكد اني ما خدعتك .

وتأوهت امرانت

— اهلكتني يا ارمان اهلكتني

(٨)

وعند ما توارت اورور انحنى ارمان على الشرفة وقال

— ياستيفانو ابعد الزورق

فاطاع ستيفانو

— وانت يا امرانت

ان نكن اليوم افترقنا قددا فموعد اللقاء بيننا غدا

ثم وثب الى خارج الشرفة والقى بنفسه في القناة يكاد لو اخطأ بحركة ان يحطم راسه على صخرة . فضبطت امرانت جزعها وسمعت سقطته في الماء كما لو سقط في قلبها وابصرت ستيفانو يتقدم الموبى (١) الى حيث اختبط الماء وازبد . غير ان حضور زوجها واورور الجأها الى الدخول قبل ان تتأكد نجاة ارمان . واسرعت لمقابلة الكونت مجتهدة ان تخفي انفعالها وخفقان قلبها بقوة ارادة غريبة ليست نادرة عند النساء في المقامات الضيقة لانهن يعرفن ان يسمهن والضغطة في القلب و يبردن صدورهن والحرارة كامنة في الافئدة كمون النار في الحجر الصلب . وسألت زوجها عن سبب الجلبة (٢) التي سمعتها . فقاطعتها اورور

١ على مهل ٢ الضجيج

— اتجاهلين . . . تعالَ ايها الكونت وانظر اذا كانت تحبة ولاي امرٍ تبعده عني كل ساعة

— من هو ياعزيزتي اورور أأنتِ حالمة ام مستيقظه

— هو ارمان فلنفتش عنهُ . قد رايته هنا وسمعتهُ يقسم لها بغرام ابدي وانهُ يموت في هواها و يقول ان

الحلو ليس يطيب من يد غيرها والمرُّ من يدها شهي طيب

لا تسمع يا صديقي كلامها ألست تراها في اوهام منام

فلم يجبها بل لبث مفكرًا يقلب طرفهُ في كل زوايا الغرفة . وامرانت ترقب حركاتهِ وسكناتهِ . ثم خرج الى الشرفة وسال كرمنتي القذاف

— ارأيت انسانًا في هذه الامكنة

— لا ياسيدي وللان لم تغمض لي عين

فالتفتت امرانت الى اختها

— قد غلطتِ يا اورور لم يكن احد هنا وهذه احدى رؤاك[1]

— كيف . اغلطت وقد سمعتهُ باذني ورأيتهُ بعيني لابسًا كسا نوتي . والّا اخبريني لمن هذا الوسام المختص بالقذافين الكِ ام لي

وانحنت تلم وسامًا كان قد اضاعه ارمان عند وثبته

فلم تسطع الكونته ان تطيل كلام الكذب لفرط وخز ضميرها فعزمت على الصدق

— انما هو ياصديقي لارمان وقد اتى الى هنا

— اتجسرين ان . . . .

— نعم اجسر ان اكون حرّة الضمير

— من اين اتى هذا الشيطان وقد اقمت حرسًا على كل مداخل الدار

— من الشرفة متسلقًا على الحائط

---

١ جمع رويا

— ومن اين رجع

— من المحل نفسهِ

— هذا مستحيل

— انت لا تعرفهُ يا صديقي بما فيهِ من القدرة وشدة العزيمة

ولعلَّ في كلامها هذا نغمةً خفيفة من شكوكه فيها . فتمزق قلب الكونت من الحزن والغيره ورأت امرانت دلائل الكدر على وجههِ فمدت لهُ يدها

— ثق يا اندريا و يرجع السعد

فهزَّ راسهُ صامتًا

— اجهلت امراتك يا صديقي او لعلك تشك في برآتها لما سمعتهُ عنها من الشكايات والاقاويل الفاسدة

انظر الى كبدٍ ذابت عليك جوًى ومهجةٍ من نجيع الدمع في لججِ

اكنت صافية القلب كما ترى لو انني خادعتك

فاستراح ضمير الكونت لسماع الحق في فم التي طالما حزن كيدًا متهاولم يكنهُ قط ان يحول عنها عاطفة من عواطفهِ . وقبل يدها بكل رضىً

— اشكرك يا صديقي على صفاء فؤادك شكرًا من سريرةٍ ملئها حب لك

فقالت اورور باسمة بسمة احتقار

— يا لهُ من مخدوع مغرور . انهُ لا يسأَلها على الاقل ماذا عمل ذلك الرجل هنا

فاتمت امرانت

— و بعد يا صديقي فلي فرض مكرس لا يسعني الاَّ القيام بهِ . ان احمي دي ناريل وادبر حياتهُ واسهر عليهِ كصديقة مخلصة . يسوءُني ان ارى عيشتنا عيشة كدر بسبب السر الذي اكتمهُ في صدري ولا اقوى على الكلام لئلاَّ يصيب اسرتنا مصائب عظيمة بافشائهِ . والاَّ لما احتملت كل الظنون

والاهانات التي اتحفتني . فاتركني ان اعتني[1] بدي ناريل فالطف نورانة بالبرهان لا بالعقاب والممانعة . هذا اخر شرح اعطيك وفي المستقبل اصمت ولا ابرّي نفسي من شيء اذا لم يكن تعلقك بي قويّاً حتى يدفع التهم عني

ثم التفتت الى اورور تبكي امرّ بكاء وتحتض الصعداء مغلجة[2] همّاً ومختبلة[3] غمّاً

— ياشقيقتي العزيزة الا احظى في عينيك ببعض الامانة والصداقة السيت ايامنا الماضية

— نسيت كلّ شيء

— اتسمع يا اندريا . . . ما اصعب الامر الذي يمنعني من التكلم . . .
لو كنت تعرفين هذا السر المشئوم لوقعت على رجلي تستغفريني على لجاجتك وحماقتك

— ستخلصين مني . قد طالما صبرت وعن قريب بفرج كربي اذ يدعوني فأُلبيه الى حيث هو

ثم قامت ناكسة بصرها مطأطئة جبينها ودخلت الى مخدع سريّ في غرفتها واغلقت الباب وراءها . فلبثت امرانت وزوجها وحدهما مشفقين على الفتاة المسكينة متحالفين على امانة كلية واسترسال[4] عظيم ثم ناما الى ان اصبح الصباح وجلا غيوم الريب عن قلبيهما فجلست الكونتة تنتظر افاقة اختها فرحةً باذن زوجها لها ان تهتم بشان دي ناريل وتكلمة حيث وجد كلاهما . بشرط ان تخبر دندولو بكل ما يتشافهان به . وان تقفه على الوسائط التي تستخدمها لردعه عن متابعة اختها . الآن دأب اورور كان يحزنها من قبيل اخر ويريها المصاعب التي تحول دون نجاتها من ارمان

فلما انتبهت اورور دخلت مدام دندولو عليها تبتهل اليها ان تفيق الى نفسها وتنظر في امرها التعيس وهي صامتة لا تنطق ببنت شفه الى ان اعياها

١ اعتني ٢ راجعة ٣ مختبطة ٤ تبادل عواطف محبة

الاستعطاف والتضرع فاجابت

— قد عزمت على السكوت التام عن شأني مع هذا الرجل العجيب الذي خلب[1] لبي وسلب قلبي فلا تسأليني عن شيء من هذا القبيل واحفظي معي اللياقة المعتاد عليها بين الناس. الينا[2] هذا الحديث. . اي ساعة يجب ان استعد لزينة الليلة فقد نبئت ان دوج فينيسيا وكل اشرافها يجتمعون على القناة غراند ليحضروا مباراة[3] الزوارق. فاريد ان اباهي بجمالي كل الفينيسيات . على ان المركيزة بربسكا بعثت تسالني اذا كنا نذهب معاً الى الزينة فما فكرك

— فكرك فكري وما يعجبك يعجبني

— المقترح جميل لمَ لا نذهب فنتمتع باكرام الناس ومشاهدة المباراة

فعقدت النية على حضور الزينة حتى اذا حان وقتها نزلت امرانت واختها بابهى البرود[4] وابهج العقود . وفيما هما على الطريق قابلا المركيزة بربسكا فنحت بامرانت

— قد سمعت ما حدث البارح عندكم امامي من ثم اررور ووشاياتها العنبرية وما ذلك الشاب الذي هامت بو الاساحر مبذرٌ يري اشكالاً جميلة وصوراً بديعة حتى تعلق بو القلوب فينقطع وصالها قطعة قاسية تملأ حياة المغرم بو مرارةً وعذاباً

ولعلَّ هذا الكلام الذي حاولت ان تقسي بو قلب مدام دندولو على ارمان كان اساساً لدسيسة في نفس المركيزة لما عهد بها من الحيلِ والدهاَ فاخفت الكونتة اجابةً لها وسار الجميع الى المشهد ضاربات صفحاً عن قصة ارمان

وبعد قليل من وصولهن اشار الدوج بابتدآء المباراة . فاندفعت الزوارق كالسهام تخترق عباب الماء مزدانة بما يجتذب الابصار ويجتلب

---

١ سلب ٢ لنبعد ٣ مسابقة ٤ الثياب

الافكار. واذا ارمان يتقدّمهم في حلة نوتيّ ارجوانية يظهر ما عنده من المراس (١) والرشاقة ملتفتاً الى الجماعة الفتانة ملك مظفر اقبل عليهنّ وما رفع كمّه للسلام على امرانت حتى خطف اسرع من البرق

وبقي الناس يصفقون له استحساناً وامرانت معجبة به حزينة على اختها حتى عاد وقد شرّفة الدوج بجائزة الاقدام والغلبة والى جانبه كونت يدعى كزنوڤا فمرّ بامرانت وحياها بالاشارة

— يا رباه كيف يتظاهر في ڤينيسيا مع رجل منهم بجرائم كثيرة يخشى عليه من عقاب قريب

اما اورور فبقيت صامتة تنظر اليه بفتنة والمركيزة محدقةً به تتعجب من براعته وجماله وهو جالس جلسة منتصر تتبع الزهور وتتكاثر الوداد على اقدامه فلا يلتفت اليها ولا يهتم الاّ بالعين التي لم تقع على عينه والقلب الذي ما شعر له في تلك الساعة ساعة الفوز والشرف بغير حب صافٍ لا امل وراءه

وعند انتهاء المشهد اسرعت المركيزة الى دارها مشتبك امرها مرتبك صدرها وانفردت في مخدعها وقد اعتذرت الى صديقاتها بعدم الذهاب الى سانت مارك للسهر. وما لبثت ان دعت عجوزاً من خدمها واختلت بها قليلاً ثم خرجت العجوز من باب سريّ تحاذر ان لا يتبعها احد وسارت في زورق الى حيث سارت

وبقيت المركيزة تنتظرها على نار من فروغ الصبر الى ان عادت بعد ساعة

— ارأيته

— نعم ياسيدتي

— والجواب

— ينتظرك ماركوسانتي الساعة الثامنة مع الشخص المعهود

---

١ الشدة

— اذن تبعيني

— الامر امرك ياسيدتي

— فاحضري لي برقعي الناعم وحلي البهيه لاني اريد اليوم ان اكون جميلة جميلة

— اذكري أسفاه كم يسر الشابات ان تمثل بهيات طليات في اعين الناظرين فساعدتك ما شئت

(٢)

وكان ماركوماتي رجلاً اسود الحاجبين براق العينين معتكف الانف كمنقار النسر رقيق الشفاه كالثعلب مما يدل على الاقتدار والخداع ذا نفس ميالة من نحو كل الاهواء. فتارة آلة لدسائس حكومتهم وطوراً ذريعة لعقد الوصال بين متحابين واحياناً جلاداً ينتقم لاصحاب الترات[1] بدراهم تدفع له على مقدار المصاعب التي تحول دون نيل المطلوب منه حتى اكتسب اموالاً لا تحصى وابتنى له قصراً على نهر البريتا يستريح فيه باقي عمره من صنائعه «الشريفة»

وكان في تلك الليلة يحضر مائدةً مزدانة باوائل من الزجاج مختلفة الاشكال والالوان لاختلاف الاشربة المودعة فيها وصور التنميق المعطاة لها. وبينما هو مهتم بترتيب الاواني وتحسين الهيئة اقبل عليه شيخ ابيض اللحية طويل القامة شديد البأس بامرهم ففاتحه بالكلام

— اريد قتل امرأة

— مرحباً بك

— امرأة منيفة شريفة

— دمها الثمن

[1] جمع ترة وهي الثار

— اخبرها عند موتها من القاتل وتشهر امرها بين الناس

— اذا اردت ان تشهر الاثم فارتكبهُ انت بنفسك

— معاذ الله ان اسفك دم انسان عاجز عن المحاماة . فكم ثمن الدم

— الثمن بحسب قدر الانسان والمصاعب التي تمنع من الوصول إليهِ

— اتكتم اسمها

— اذا كنت تعرفني بغير الكتمان فلمَ تأتي اليّ

— اذن اريد ان تمحو لي من الارض المركيزة بريسكا لأني ابغضها من كل نفسي

— كيف اقتلها وهي حبيبتي

— وهل تمنع حمايتك

— نعم تدفع عنها كل خطر وتفلل دونها كل خنجر

— اذن لا يقدر احد عليها

— الآن بما يظهر لي من حنقك عليها . واظن انهُ افضل لك ان تنتقم بيدك وتشفي غلة كبدك . وحقًّا لك على اعدامها اخبرك انها عما قليل ستأتي الى هنا لمقابلة عاشق لها قد سألتني احضاره

— الا يتيسر لي ان اكون منها بحيث أسمع ولا أُسمع وأرى ولا أُرى

— ياحبذا لو امكن غير انها قد استأجرت مني الدار كلها بشرط ان لا أُدخل فيها احدًا غريبًا

— واذا دفعت لك ضعفَي الاجرة

— وقعت صفقة البائع فلا طاقة لي في استرجاعها

— كم طلبت لهذه الليلة

— ثمانين فرنكًا

— اعطيك مئتين فما قولك

— تطلب المستحيل

— قد زدتني تكرمةً لك باقامتك على عهودك

— يوبخني ضميري لو جريت على خلاف

ثم تناول مشعلاً واری ا لشيخ البيت بكل خفاياه وزواياه . حتى اوصله الى الباب

— والانَ ياسيدي قد حان الوقت فعليك السلام . واذا احتجت فيما بعد الى خدمة فاذكرني

ولم يمضِ الّا بضع دقائق حتى اتت المركيزة مبرقعةً ومحلاّةً بابهى الحلى . واقبلت الى مرآة تنظف ثيابها وتهندم شعرها . ثم أخذت تخطر في فناء الدار اذ فتح الباب ودخل ارمان بهيئته الجميلة مرتديا معطفاً اسود على غير زيّ العصر تلمع عيناه زرقاوين من لون السماء تحت اهداب من سوادالليل فلما رآها ضحك استهزاء وسلم سلام ساخر فقالت له

— أ انت حرّ

— حرّ الليلة نعم

— ما فهمت فكري اسألك اذا كنت غير مشغوفٍ بامرأة وقادرًا على فتح قلبك لغانية فتحت لك قلبها

— مالكِ وهذا الكلام هلمّ فنتعشى ونرقص ونزهو

— ارمان انت تعرفني

— اظن كذا

— من انا

انسيتِ انكِ استدعيتني الى هنا

— قد عشقتني في الماضي واصل العلاقة بيننا قدح شراب

— اعرفكِ حق المعرفة واتندم

تتندّم لمعرفة امرأةٍ ما نسيتك قط . امرأة لا يمحى حبك من قلبها

— متى احببتني وكيف تجسرين بعد خديعتي على الوقوف امامي

ــ احبك من كل قلبي

فتأفف ضاحكاً ولم يجب

ــ تضحكُ من تعلقي بكَ وتذكرني خديعتي كما ذكرتني امام مدام دندولي

ــ لا اشك اني صدقت

ــ صدقتَ ولكنك جرحتني بحضرة خصمتي التي تريد ان تسلبك من يدي .

ــ فضحك اكثر من قبل

ــ فعبدك يا ارمان قد قطعت املي فبمَ ابرهن لكَ عن اخلاصي انظرْ الى دموعي وخفقان قلبي واحدق بصرك في نفسي

ــ ماذا تريدين ان ارى في نفسك كفاني الشيطان الذي رايته فيها وليس لي قابلية للإعاده

ــ رحمة يا ارمان لو تدري ما قاسيت بعد فقدي ذلك الكنز الا ترده عليّ

ــ يا للعجب ما سبب هذا الغرام

ــ هذا الغرام فيك لانك فريد بالحسن واللباقة والقوة . لانك ظهرت اجمل واشرف بني زمانك . لان لحظك كان امس لحظ غازٍ منصور او ملاكٍ مكلل بالنور وفي الجملة عشقتك وانا عاشقتك « ما دام في جسدي شيء من الرمق »

ــ انتِ واهمة فليس ما ذكرتِ سبب حبك إلي

ــ اذن

ــ سببه انك بغيّ تحسبيني على شاكلتك . انك قادرة قويّة في كل اعمالك اذ لا تفزعكِ الآثام واكثر من ذلك انكِ غيورة . علمتِ ان قلبي ملك غيركِ وتحاولين جذبه اليكِ من كل قواكِ الشريره و بكل ذرائعك

المستفيحة . فخلاصة القول انك عبدة آبقة [١] وما اريد الاّ عبيدًا خضوعًا لاني كما قلتِ ملك القلوب وابقى الملك مهما حدث

— مدام دندولو ليست عبدةً لك

— لا تلفظي اسم مدام دندولو أُحرّمهُ عليك . انهُ لعنة بفمكِ

— اذن تهواها كثيرًا

— حبًا لا يشبهُ بشيء

— اكثر مما هويتني سالفًا

— ايوجد وجه للتشبيه ابن الثريّا من الثرى وأنّى لكِ ان تفهمي غرامًا لا يبعد عن العباده

فنكست بصرها وبكت

— قد اوسعتني ذمًا واهانةً وجرحتَ قلبي واسلتَ دموعي فصبرت وصمتُّ ولا ازال انتظر كلمةً منك لضماد جراحي وتنشيف دموعي . انظر اليّ يا ارمان أأنا الان تلك الامرأة الخداعة التي سلطتك بخنجرٍ لتقضي مرام غيرك . قد غيرني حبك

وجثت امامهُ على ركبتيها وهو منتصب كقضيب الخيزران وافي السبال [٢]

— اسمعي يافيوربنا اني عرفتك الان كما يجب . قد يمكن ان لا تخدعيني وانك عاشقة لي . وانا اقبل ودادك وابقيكِ مطروحة على اقدامي محننا عليك ببعض قُبَل ومستخدمًا حبكِ لِما شئت . فهل ترضين

— تهِ دلالاً فانت اهل لذاك وتحكم فالحسن قد اعطاك

واقض في ذا الفؤاد ما انت قاضٍ فعليّ الجمالُ قد ولاّ كا

وحملني ما اردت من الامتهان والهزء . اصبر على مصيبتي واثبت لك انني لا اميل الى سواك

---

١ مستعصيه ٢ الشاربين

ووقفت عن الوطآء [1] اذ لم ينهضها ارمان باكية منحسرةً لا عزاء لليها ولا امل ورآء حبها من معشوق غير عاشق لها يزدري بها ولا يذيقها حلاوة كلام ولا يريها وجه ابتسام. فيا لها من مصابة بداء لا طبيبَ له. غيرّ العشق قلبها وجعل من تلك القاسية الرديئة الخائنة صديقة لينة جيدة امينة

— بالطول شقاي ان لم ترحم قتيلتك يا ارمان

على ان ارمان بما منحهُ الله من الحسن في خَلقه واللطف في خُلقه ورغد المعيشة وسعة العقل والفهم لم يعمل الاّ باهوآء نفسهِ اذ لم يدلهُ دليل على الحق قبل فوات الوقت لذلك. فنشبت فيهِ مخالب العشق وجمعت كل امياله وافكاره الى حيث كان الحب من قلبهِ. فلما راى فيورينا على قدميهِ لم يستطع ان يستزيدها ذلة وكآبة فاظهر لها بعض الميل وهو لا يحسب ان امرأة كالمركيزة تتخذ ميله اليها حقًا لها عليه وتكون العاقبة وخيمة فقال

— يظهر لي يا فيورينا اننا بالكدر لا نعطي المقام مقتضاه من المسرة. هذه المائدة معدة والخمور تسطع في الاواني كالعقيق. فلننسَ الماضي والمستقبل ولنتنعم بالحال. لماذا نضيع وقت الطرب بالويل والحرب. قد سمح الزمان لنا بساعات بهجة فلمَ لا ننتهزها لتفريج الكروب وتفريح القلوب. هلمّ الى المائدة فناكل ونشرب وفيما بعد نعود الى الوداد

فهزت فيورينا راسها لدعوتهِ ولم يطفِ وعده لوعة قلبها المحرقة ولا روى فؤادها الظمآن

— لا تهواني يا ارمان ولن تهواني ابدًا فما اشقاني واسوء نجمي

— من قال لك انني لا احبك الان اشد المحبة. فاكشفي غيوم الكآبة عن وجهكِ الوضاح وابعدي بالصفآء عن ثغركِ الوردي واسكبي لي من الكوثر ليتجلى صدري انكِ الآن اجمل مما كنتِ في نابولي وقد اسكرني حسنك البارع. خلِّ عنكِ وخزَ الضمير وعودي بهِ الى زهوكِ الاول

---

1 الارض

فالعود احمد

والحال اشرقت سمآء حبها بابهج النجوم والمعها ووعدت نفسها بسعادة لا تقدّر وهماً منها انها استرجعت قلبه اليها . ولكنها ما سمعت هذه الكلمات الرنّانه الاّ اظهر لها التأمل ما ورآءها من الخلاَء « نعمّ الغصون ولكن بئسما الثمرُ » فعاودت ارمان لامتحانه

— مسكينة انا لا تهواني ولن تهواني ابدًا

وما اطاع صوت الخداع مرة ثانية لاجابتها فصمت هنيهة ثم قبل يدها تعزيةً لها على مقابلة انسها بالجفاء

— لمّا فعلتَ . لا استحق عندك الا قبلة حرمة يا ارمان وايّة حرمه

وقد صدقت بقولها « واي حرمة » لان الغاب طردها من فردوس قلبه منذ يوم نابولي واقام الجفاء جنديًا على بابه يمنعها من العود اليه . ولكنه رأفةً عليها غيّر مجرى الحديث رجاء ان يسليها

— الا نذهب الليلة الى سانت مارك

— اليس لتراها

— نعم لأراها فما مفاد سؤالك

— ما مفاد سؤالي

واندفعت عليه كاللبثة الكاسرة وضغطت ذراعه بكل قوّتها

— على انني اقتلها واعذبها اكثرمما انعذب واسحق قلبها كما تسحق قلبي

فرجع ارمان الى ابتسامه وقال بصوت ساخر

— ما أليقك لتشخيص الروايات على الملاعب

— تضحك مني كانك لا تخشاني ونعلم مع ذلك على اي شيء اقدر ومن انا فلا تطل معالجتي بما يمرمر النفس

— اتعرفين يافيوريتا الكونت كزنوفا

فاغتاظت المركيزة لهذا السوال الذي كان يعني ان ارمان ما خشي

من التظاهر مع كزنوفا في فينيسيا فكيف يرهب امرأة ضعيفة وأجابت بكل حدّة

— اعرف ان كزنوفاهو الرجل الذي يجب عليك ان تحايده اكثر من كل الناس وعما قليل ستقبض عليه الحكومة فويل لك اذا سماك في جملة اتباعه

— ما شأن الجمهورية واياي وانا غريب وفوق منالها

— كل من في حكم الجمهورية من غرباء ووطنيين سواء في عينيها

— مثلي بجلّ عن ان يكترث لهولاء الجواسيس اللئام

— احذّرك تحذير صديقة ناصحة «اياك ان تبتلي رجلاك بالزلق» لئلا تسقط في وهدة لا مناص منها

وفي الساعة نفسها قرع الباب قرعة قاسية ازعجتهم ففتحة دسبه ناريل واذا بماركو اصفر الوجه مرتجف اليدين التفت الى المركيزة

— عفوك ياسيدتي لم اخبر شيئاً ولكن . . . ولكن . . . ليس ذنبي

— ماذا تريد ايها الرجيم الطلب نفسي . قد نعتك اياها من زمان طويل وللآن لم تدفع لي ثمنها

— انه لصعب عليّ ان افسر لكِ ياسيدتي . . . غالباً ستظنين ان لي يداً في المسئلة

فقال ارمان

— ما امرك ياشيخ قد افرغت صبري

— يوجد هنا اناس طالبون لك

— كيف يعرفون اسمي وأني عندك

— ان هولاء لا يخفاهم شيء

— أذهبُ لمقابلتهم

— بل يودّون الدخول الى هنا . في هذه الغرفة

— يالهم من زوّار لا يفهم امرهم . لا يدخل احد منهم

— لا يسعني الا ادخالهم ياسيدي

— ما شأنهم وإياي انهم لصوص قتلة . لست متسلحًا ولكن حياتي لا تضيع هينة . أدعهم الى هنا وتبرقعي يافيورينا

— فاطاعت المركيزة وما القت بصرها على الداخلين حتى صرخت من الرعب ودفعت ارمان الى جانب الغرفة الآخر

— ماذا جرى

فهمست في اذنه

— الجواسيس فاياكَ قلة الفطنة وسرعة الحدّة والاّ هلكت

ودخل الجواسيس متبرقعين فتقدم واحد منهم وتلا

«باسم جلالة الدوج وقوّة الجمهورية اوقفك يا ارمان دي ناريل فاتبعني على الفور»

— قد داهمتموني ايها السادة بزيارة ارفضها . انني فرنساوي ومعي جواز من بلادي مصادق عليه من سفارتنا هنا يثبت انني متغرب فلا حق لكم بالقبض عليّ ولا ارتضي بذلك من طيبة نفس

— دع مقاومة لا تدفع عنك الحكم والا الجأتنا الى استعمال القوة لقيادتك وليس ذلك من عاداتنا فهلمّ بنا

وسمعت المركيزة كلام الخصمين وهي لا تبدي حراكًا ثم اعترضت بينهما كانها مستعدة لاتمام قصد جليل ورفعت برقعها بهيئة اوحاها اليها الحب وسألت رئيس الجواسيس اذا كان يعرفها

— بلا شك ياسيدتي

ورفع كمّة قليلاً إكرامًا لها

— اجيب عن الاسير امام المجلس

— لتعلم السيده اني موصي كل الوصاية ان لا استأمن لها

— فعضت على شفتيها حتى ادمتها من الخجل لظهور مكايدها
— اذن ليس في وسعك ان تطيعني
— لا ياسيدتي ليس الليلة
— ستسوقونهُ الى احد آبارکم وتطرحونهُ فيهِ ليموت قليلاً . هذا مستحيل أذهب الى مجلس العشرة وأبذل مجهودي لانال تحريره . أبيع نفسي الف مرّة لاجلهِ . فباللّه لا تاخذوه
واشار العريف[1] الى ماركو سانتي فضبط المركيزة من ورآها والتفت الى خلف فانقضوا على ارمان وجعلوا يدفعونهُ نحو المشي وهو اعزل لا سلاح معهُ يذب[2] عن نفسهِ كالاسد ويمزق جمعهم بقدرة عجيبة والمركيزة من ورآ ٍ مقيدة تشجعهُ — خلص نفسك منهم يا ارمان وعندي ذريعة لنجاتنا من هذه المدينة فلا نعود اليها —
حتى اذا عجزوا عنهُ استعملوا عليهِ الحيلة بان احتاطوه بالحبال من كل جانب وطرحوه في الارض مرتبط اليدين معتقل الارجل وما استطاعوا ان يقودوه الاَّ حملاً الى مقصدهم . ولما ساروا بهِ همت المركيزة لتتبعهُ فهدأها ماركو
— اذا تبعتهِ هلكتما جميعاً فاحفظي نفسك لتحريره بالوسائط
— اعرف من يساعدني وفيما بعد يعلم من يحبهُ اكثر
والحال سدلت برقعها وتوارت في منعرجات البيت ثم خرجت من الطرف المشرف على الماء وركبت زورقاً كان ينتظرها
— الى البيازتا كالبرق
واذ ذاك دخل الشيخ الذي ذكرناه من الباب الآخر على سانتي
— ان بيتك ايها الخائن الخداع مكبس جميل لمن يستأجره وظني ان الشرط يدفعون لك راتباً لجمع مجايسهم عندك

---

١ الرئيس ٢ يدافع

— هذه صنعتي احسن القيام بها وليس ذنبي اذا فعلتْ اعين حسناء عندي فعلَ الشحم في المصيدة على الفار

— كفى كفى والسلام

(١١)

كانت حكومة فينيسيه بايدي الاشراف يتصرفون فيها ملء التصرف بما خرج مرارًا عن الانصاف وتجاوز الى حد استعباد الرعايا اشد الاستعباد فمنهم الدوج وهو رئيس انتخابي تخضع له كل فينيسية وتعرفه حاكمها. ثم مجلس العشرة وهو مساعد الدوج في اعماله ومدبره وهاديه الى سواء السياسة.[1] ومنهم الطواف وهم ثلاثة قضاة سريون ينتخب مجلس العشرة اولهم والاول يختار الثاني والثاني ينتقي الثالث بحيث لا يعرف كل منهم الا واحدًا من زملائه[2] وجميعهم ما لكون لا يردّ اوامرهم حاجز ولا يرتفع عليها امير كما لدوج او شريف او غني ، ولا عليهم مسئولية يجيبون عنها الى احد . واذا اتفق ان تعارفوا من الاصوات او الاشارات لم يجرأ احدهم على اظهار شيء مطلقًا . وكانوا يفحصون بالتدقيق الشكايات الواردة لهم ويحكمون على الغرماء بالهلاك او التبرئة كما يريد ولهم في قصر قديم العهد متين البناء كله حنايا وزوايا ومنقلبات وتحته الآبار المشهورة والمضايق والحبوس التي جمعت فأوعت كل انواع العذابات مما اختلقه الانسان لقتل الانسان في عصرهم ذاك . عصر البربرية والذلة والرق . فلا تسل عن رعب اهل فينيسيه من اولئك الطواف الثلاثة وكم من اسرةٍ خطف ذكرهم البهجة من قلبها والقاها في بحر الضجر والخوف

ولكن هذا الحكم الظالم جعل من فينيسيه بلادًا مخصبة مرهوبة تخترق سفنها البحار وتعمل بآرائها السياسية كبيرات الدول . اما الدوج الذي

١ السياسة المستقيمة ٢ جمع زميل وهو القرين

تتكلم عنه فمع ضعفه وركاكته في تدبير الامور وتدريب الاحوال لم يفقد كرم الاخلاق واليدين من اصطناع المعروف واغاثة كل ملهوف

وبعد قليل من حادثة ارمان بينما مدام دندولو تخطر في قهوة فلوريان ويدها بيد الدوج اذ استلفتتها امرأة يكاد الهم يطير بعقلها وابتهلت اليها بلجاجة ان تسمع لها كلمتين على حدة فلبّت

— قد قبض الطواف على ارمان بانه تشيع[1] للكونت كرنوفا في ثورته على الجمهورية فاسرعي الى معونته وخلصيه بالله

واختفت الامرأة بين القوم دون ان تعرّف فاحست امرانت بضربة قوية في قلبها

— لعلّ اندريا له يدٌ في هذه الخيانة . اللهمّ ابدعني عن هذا الفكر السيء المفزع

واصفرّت اشد الاصفرار ثم اتكأت على كتف الدوج منهوكة مُعيية

— اعذرني ياسيدي ان شئت . اظن ان الموت قد دنا مني

فحزن الدوج لاخلاص مودته للكونتة وجرّها الى اقرب كرسي منها واجلسها لحظة الهمة تلوح على وجهها دلائل احزان مهمة فصرخ يا للاغاثة

— لا تسمع صوتاً ياسيدي ينبغي لي ان اكلم جلالتك بامر دونه الحياة او الموت فتنازل واجلس قريباً مني ثم عِدني انك تمنحني كل ما اسألك

— تعلمُ الكونتة انني اسرّ بطاعتها

— قد القي القبض على شاب فرنساوي انا مسئولة به ووضع في الحبس

— اخابر السفير الفرنساوي ليطلبه من الحكومة . لماذا اوقفوه

— ما أدري . هو الرجل الذي اعطته جلالتك جائزة الانتصار في مباراة الزوارق

---

١ تحزّب

— ماذا . . . أهو الشاب الذي اعجبت اليوم برشاقته وقدرته . ما ذنبه

— قد امسكه بعض الشرط باسم الطواف

فتقطب وجه الدوج

— اذا كانت المسئلة بيد الطوّاف فالامر غير ما ظننت وليس لي طاقة بشيء عليهم ايتها الكونتة العزيزه

— كيف . . . ألست الحاكم بامرك الا يمكنك ان تكلمهم وتأمرهم

— ما اعرف منهم الاّ واحدًا . ولعلّ زوجك احدهم فهو اقدر مني

— زوجي . . . معاذ الله . . والاّ لاخبرني

— انه لا يخبرك بسبب الأيمان التي يحلفها والخطر الذي يتهدده ان اخبر بقدرته ايًا كان من الناس

— ولكن الا طاقة لجلالتك بشيء لتخليص هذا المسكين

— املكِ تهتمين به كثيرًا

— فوق الوصف

— كيف ذلك

— لانه وطني وفضلاً عن ذلك صديق لي

— ان صاحب امرأة حسناء يخشى عليه من التحوّل الى غير شيء

— الست تعلم ياسيدي

— عفوك ياسيدتي لا اتكلم عنكِ لان فضيلتك تعتبر الارض حوالمكِ اما امزح

— لا وجوب للمزح لكن افتكر بالحبيس المعذّب

— ما اسمه

— ارمان دي نار يل - كان احد حرس الملك في فرنسا وانصرف من رتبته لاسباب ثم نفيَ الى الهند على غير ذنب فقُدم له منصب سامٍ لم يرضَ به ولم يلبث ان هرب فاتى الى هنا

— قد فهمت ما ذكرت

والتفت الى الورآء فدعا رجلاً من حاشيته وامره ان يفتش عن المسير غرندي (وهي وزارة من اهم الوزارات كانت تدور عليها كل احوال فينيسيه وصاحبها لا يلقب الاّ بها . يطوف المدينة في كل اطرافها من الصباح الى المسآء ويوزّع الاوامر والاخبارات ويسمع كل الشكايات ويرى كل المجرمين ولا يبلغ نعمة الا بكل احتفاظ فكانه رجل من حجر) ولما لقيه الرسول جآء به الى البيازتا فواجه الدوج مواجهة سرية ثم مضى وقال الدوج

— عليك بالصبر ايتها الكونتة وعما قليل نطّلع على احوال حبيبك

ولم ينتظرا الاّ قليلاً حتى عاد المسير غراند واجاب الدوج على ما ارسله لاجله فصرخ صرخة حيرة

— احان لم

— نعم ياسيدي والذي اشتكى عليه من الطواف طلب الليلة جلسة غير عاديّة للاسراع بالحكم عليه وللآن لم يعلم بما وقع القضآء أباعدامه ام حبسه

ثم همس الدوج في اذنه شيئاً جديداً فلبث في مكانه وعاد الدوج فاخبر الكونتة بما سمع أن ارمان على وشك ان يقضى عليه في الليلة نفسها

— ما الحيلة ياسيدي ما الحيلة

وتقطّعت من الخشية عليه

— الا تعلمين ايتها الحزينة ان الطوّاف الدّ اعداء الناس ولا يدعون فريسة تفر من ايديهم . اخاف ان لا تنفعه اهتماماتي اذ لا سلطة لي في ذلك

— ياسيدي الا يمكنني ان اراه

— ان تريه

— أذهب مع المسير غرندي باذن منك لعلي اعرف شيئاً عنه

— ترجين المستحيل كيف اصدم سلطني بسلطة الطواف . ياحبذا لو اقدر

ـــ وعليه يجب ان ارى اندريا على الفور فعليك السلام ياسيدي . اشكرك على ما صنعت لاجلي . رد الله احسانك عليّ باحسانه عليك .

ووقفت فسلمت على الدوج واخترقت القوم بسرعة عظيمة تنقّب[1] عن زوجها في كل مكان

فقال الدوج

ـــ اتبعها ياسيور غرندي . قـــد فقدت رشدها . ما عساها تعمل . يالجنون النسآء

ـــ هذا الجنون الفرنساوي ياسيدي

وسعى في اثرها . اما هي فجهدت نفسها بالتفتيش على غير فائدة اذ لم تجد زوجها او اخاها ولا رأت برقعاً يشبه برقعيهما ولم يجبها احد ممن سألت انه رآهما او عرف بمكانهما

ـــ قد رجعا بلا شك الى القصر

فاسرعت الى البيازتا وركبت زورقها آمرة ان تقاد الى بيتها بارشق من الطيران خائفة ان لا تصل اليه . حتى بلغت القصر فصعدت راكضة وسألت عن اورور وعن الكونت فاجيبت ان زوجها ادخل مداموازيل دي سانت مام ثم ركب زورقاً وسار وحده تحت القناع مغيرّاً كل ثيابه الى حيث سار

فشعلت في قلبها تلك الجمرة التي القاها الدوج في نفسها حيث قال ان زوجها احد الطواف وصرخت ـــ يالله اوح لي الصبر الجميل يا امي رحمك الله علميني ماذا اعمل ايكون دندولو احد اولئك الظالمين المنتقمين اهو الذي اشتكى عليه ليتملص منه و يقاصه بالهلاك من اجل حب بلاامل . كيف وعدني في الصباح بثقة كاملة فيّ و بعفو شامل عن ارمان والآن امسكهُ ليقتله اسرا وسيقتلني كمداً وحصراً بالمصيبة ـــ و بعد هذه الافكار

١ تفتش

لبثت تنتظر امرّ انتظار . اذا حاولت ان تصلي لم يصل الكلام من قلبها الخافق الى لسانها المرتبط حسرة وحزناً واذا طلبت السكينة . والتعزية سمعت اصواتاً صاعدة في الجو من كل اطراف الاقنية فنافون ينادي بعضهم بعضاً خوف اصطدام الزوارق . واخوان صفا . يضربون على الآلات وينشدون اطرب النغمات باطيب الاصوات وفي خلال ذلك هذر وقهقهة وانواع مسرة تسقط كلها احدّ من الخناجر على قلب المعذبة المنتظرة . حتى قرعت الساعة الثالثة بعد نصف الليل واذا بزورق اقبل نحو القصر وشخص ثم من الزورق وصعد على الدرج صعود عجلة فظنته الكونت .

وبعد قليل فتح عليها الباب ودخلت المركيزة بريسكا مضطربة خائفة

— ماذا عملت يا حضرة الكونتة

فهمت امرانت ان مدام بريسكا هي التي اخبرتها في الامس عن حبس ارمان واجابت

— قد عملت ما استطعت

— ونهاية الامر

— ما ادري . شكوت الى الدوج ورأيت المسير غراندي وكلاهما لم يستطيعا دفع المقدور ولا رد المحذور

— اذن لنذهب الى قصر الدوج ونراها

— الى قصر الدوج

— ما عليك الا اتباعي لان اسمك وحضورك يحميانني من كل طارئ وانا عندي واسطة للدخول الى المحكمة

— انسي

— نعم اخاطر بحياتي ولا فضل لي بذلك من اجلو

— هلم بنا

— انت ثابتة العزيمة ولا تخافين

فوقفت امرانت متحيرةً في صعوبة طريقها خائفة من إن ذهبت أن يكتشفها احد فتضيع قيمتها في اعين الاشراف وتصبح نظرًا لسموها مثلاً مشهورًا ولكنها ذكرت ايضًا ان عليها للارمان واجبات الام لابنها والاخت لاخيها والصديقة لصديقها فتشجعت وقالت

— هلم بنا ولتكن ارادة الله

(١٢)

وذهبت امرانت وفيبوريتا مهتمتين بنجاة ارمان مختلفتي الغرض لاختلاف عواطفهما وسيرتيهما فوصلتا الى اليازيتا ومنها لتجهتا ذراعًا على ذراع نحو قصر الدوج صامتتين مشغولتين بافكار وامال متباين[1] بعضها عن البعض تباين قلبيهما وحالتيهما الى ان دخلتا فناء القصر وصعدتا في درج ادى بهما الى ممشى طويل. فقطعتاه وانتهيتا الى درج آخر مظلم يبلغ من فوق الى ندوات[2] المحاكم ومن تحت الى المضايق والمآتم. فسالت مدام دندولو رفيقتها وهما مبرقعتان اتم التبرقع

— الى اين نمضي من هنا

— الى حيث نقدر ان نسمع من اخبار ارمان وان نرى ارمان بنفسه

— هلمّ بنا

— اياكِ ان تتكلمي الّا اذا دعوتكِ الى الكلام او تكشفي عن وجهكِ بغير اشارة مني

وصعدتا في الدرج تحت ظلمة عميقة حتى وصلتا الى باب عن الجهة اليمنى فقرعته المركيزة ثلاث مرار بنوعٍ سريّ وانتظرت هنيهةً ثم اعادت القرعة على لحنٍ اخر. وبعد دقائق معينة رجع من الداخل صوت الباب على الشكلين المذكورين. فقرعت على وزنٍ جديد وقالت

— زانت وسالنت

١ مختلف ٢ جمع ندوة وهي المقام

وللحال فتح الباب كأنما اثرت به تلك الرقية[1] ودنا منها رجل اسود اللباس فاجاب

— روميه واتباكه

فقالت المركيزة بريسكا

— نحن مرسلون

واماطت[2] برقعها تهردنه بسرعة ورفعت من يدها خاتماً ارته للحارس فانحنى ودخلنا وراءه ·

— ماذنكما · · · ما هي الاوامر

— يوجد حبيس الليلة يحكم عليه

— من هو

فرجفت الكونتة واجابت المركيزة بهيبة وركزتوكدان النجاح والفوز

— الاكبر · · ·

— وفضلاً عن ذلك

— يجب ان نراه

— من المرسِل

— هنا ·

واشارت الى الخاتم

— انتظار

— صعود ام نزول

— نعرف حين نمرّ

اما الكونتة فبقيت لا تكاد تتنفس من ضيق المكان ومن ذلك السكوت التام والظلام الحالك البعيدين عن طبيعة فينيسيا من المسرة والملاهي، ولا تصدق انتقالها العجيب كأنها حالمة · وزاد رعبها تلك الجدران

---

١ طلسمة ٢ كشفت

المسودّة والكلام المقطّع المري ووجودها بين كل انواع الآلام والعذابات .
لكنّ المركيزة لاعتيادها على تلك الاماكن ما خشيت الاّ ان تُعرَف وعليهِ
اشارت الى رفيقتها فتبعتها وجلست في زاوية الغرفة وبداها في أكمام دثارها .
وذهب الحارس فجلس على كرسيّ في الطرف الاخر من الغرفة نفسها
ولبثوا صامتين في ذلك المكان المائل لا يسمعون الاّ جلبة اليازيتا من الاغاني
والتهتهة واصوات الآلات التي كان يدفعها الحزن الى تلك المساكن
ويبثها على جدرانها

وبعد ربع ساعة سمعت اصوات مشي وقورة وموزونة تحت تلك
القبب الرنّانة ثم مرّ ثلاثة اشباح سود منتصبي القامات واحداً واحداً امام
باب القاعة ولم يقفوا فهمست المركيزة في اذن امرانت

— هؤلاء الطواف الثلاثة

فاندفعت الكونتة الى الامام رغماً عنها وكادت تسقط لو لم تمسك بها
المركيزة . وفي اندفاعها اشتمت رائحة العطر المعتاد على التضمّخ به زوجها
وقارب ذلك ان يحقق ظنونها فيهِ

وبعد هنيهة استوى الحارس على رجليهِ وقال

— تقدما . عن قريب يمرّ الحبيس من هنا فاما ان يصعد به الى
المضايق او ان ينزل الى الآبار بحسب ما يحكم عليهِ

فوقفتا تنتظران يكاد يسمع خفق قلبيهما حتى اقبل العسس مستترين
ووراءهم رجلان واحد رفع الى المضايق والآخر ذو مشية رشيقة وقد ردني
عرفته المركيزة والكونتة انزل الى الآبار . فتنفست فيوريتا تنفس فرج وأملت
لارمان بامكان الخلاص . وبعد هنيهة قال الحارس

اتبعاني اذا كنتما على عجل

فمشت المركيزة امام امرانت ولم تخطُ خطوة الاّ ظهر المصير غرانده
فاوقفها . وكالم الحارس قليلاً وفحص الامرأتين بدقة ثم مال عنها فارتة

المركيزة خاتمها وكفى ذلك للتملص منه

وكان تحت الارض كما نوّهنا اقبية مقطعة غرفاً ملبسة جدرانها بالحديد وفيها نوافذ للنور والهواء . والاقبية طبقان طبق اعلى وهو المدعو بالمضايق لما فيه من الحر القاتل والظلام الرائع والخلاء المخيف الذي يقوى بالاصوات الخفيفة ويوهم ادنى حركة جعجعة بعيدة . والطبق الثاني فيه بيت النحيب وهو بئر يطرح فيه القتلى والثائرون على الحكومة وفي الجملة اصحاب الذنوب الكثيرة الكبيرة . وسائر الآبار حبوس لمن اذنب نميمة على الاشراف او المقربين منهم وللذين لا يراد اعدامهم وحبسهم الابدي .

الى هناك سيق ارمان

وما زال الحارس يسعى امام المركيزة وامرانت حتى قطعوا ممشى طويلاً مظلماً . وعند وصولهم الى اخر سجن اخرج الحارس مفتاحاً وفتح به الباب على ارمان وهو يخطر طولاً وعرضاً . مشتركاً[1] كانه يفكر بنقمة او بكبير خطب فالتفت عند ذلك وقال

— ما بالكم وإياي أتستقيل الراحة للانسان في مقرّه تحت ظلّ جمهورية فينيسيا . . . . .

فلم يجب السجان بكلمة البتة بل لبث صامتاً تبعاً للعادة في ذلك المحل وقال للمركيزة

— لست بقادر ان ابقي لكما مشعلي ونور النافذة يغنيكما عنه . الاّ اذا احتجتما الى كتابة وهذا غير جائز هنا . انني اذهب الان وارجع بعد نصف ساعة لاصحبكما الى الخارج . اما ترين هنا الاجل كافياً

— نعم كافياً

ولم تجب باكثر من ذلك لانّ الاضطراب اخذ منها كل ماخذ . فأغلق الباب وراءها . وتقدمت مدام دندولو نحو ارمان بثبات قلب وخفة قدم .

---

1 غائب الرشد يناجي نفسه باشارات

فدهش لمشاهدتها على حين لا يجرأ الاخ ان يقع موقع الحمو ولم يتمالك عن اظهار ما اعتراه من الفرح

— امرانت أأنتِ انتِ . . . وما الذي قادك الى ركوب الخطار كهذه

— ما صنعتَ ياعزيزي وما الذي اوصلك الى هنا . كيف السبيل لانتشالك من الاسر

— اجهل ما صنعت ولا ادري ما قادني الى هنا . وقد نبذت التخلص الان وقنعت بالاسر عن الحرّية لانك تشاركيني الاسر يامنية كبدي

— ناشدتكَ الله دع عنك مثل هذه الافكار وتعلق بما هو خير . قل لي ما الذي اوقعك في السجن واستجلب عليك غضب الطواف حتى حكموا عليك . وكانهم حكموا عليّ بطول الاسى والحزن

— قد جاروا عليّ اعتداءً زاعمين اني وصديقي كزنوفا زعيما عصبة حملها الفساد فاخذت الحكومة مغرماً وتطوحت في الشر وتربصت [1] بالطواف الهلاك . عصبة عملت بالقاء الرزايا وابرام المكايد فقلقلت اركان الراحة والسلام وكادت تقوض [2] عماد الحق لو لم يتداركها أُولو السلطة بسلطانهم ويلقوا القبض علينا . وانني لبريءٌ من كل هذه التهم بعيد عن مثل هذه النيات . حوكمنا فقضي علينا بالسجن الى ان تضيء الحقيقة لديهم والظلمة لا يقاربها نور . رذل الله الطواف ما رايت قط وجوهًا اقبح من وجوههم قد اتخذوا لها خوذًا تخفيها عن الناظرين فلا يتخللها الّا بصيص اعين اشبه بعيون الذئاب الخاوية . ولما دخلت القاعة ابدى احدهم امارات حيرةٍ ودهشة فلزم الحيادة مدة وقوفنا بحضرتهم ولم ينبس بكلمة . فبذلت الجهد لأعرفه ولم اتمكن من ذلك . . . وما عليّ وانت يامطمح ابصاري وغاية امالي قد اتيتِ الان تخففين عني الاثقال وتضعفين الاهوال فتكرمي فدتكِ نفسي بالرضى ولا تبخلي او «اموت قتيلاً في الهوى فاتة الصبر»

---

[1] توت [2] تهد

وعند ذلك اخذ يدها يقبلها فانتشلتها واشارت الى الباب حيث بقيت المركيزة تتنفس الصعداء لازدرائه بها

— ارمان لست هنا انا وحدي

— لعلك اصطحبتِ احدى خادماتكِ

— بل امرأة القت بنفسها في المخاطر لتصل اليك فجاهدت خوفاً عليك وانت لا تعرف فضلها ولا تقرّ بجميل صنيعها

— اظنها فيوريتا

فاندفعت المركيزة الى الامام وقالت

— هي نفسها . . اما كنت يا «ودود» تنتظر قدومي

— انني انتظرتكِ انت دون رفيقتك لما عرفت بك من ثبات الجنان وما اظهرتِ لي من وثيق المحبة

— بعيشك دعنا يا ارمان نحدثك بما يعود نفعه عليك من امر خلاصك وفضّ اغلالك . لسنا هنا للمغازلة فلكل مقام مقال . شأننا النجاة فالنجاة

— احب شيء اليّ الخلاص فما السبيل اليه وعلى ايّ حيلة نعول

— على حيلة تقتضي الثبات والشجاعة . ولا اكثر من طعنة خنجر .

فارتعدت امرانت

— و بعد

— عليّ الاتمام فما يعنيكَ ذلك

— اتبعيني يا عزيزتي امرانت فاستعين بك

فاجابت المركيزة

— دعها انني كفوء

— لا اخرج قبل ان اراها مرةً ثانية

وكان ارمان . ونار الاقدام تتكشف[1] في عينيه . يتكلم بصوت منخفض

---

١ تسطع

لعله بما كان في فينيسيا من الدهاليز والمخابيء المخدعة والاواقل الصوتية التي تنقل الكلام الى بعيد واشية بدفائن الصدور فاشية لاسرار الامور

فقالت امرانت

— عند خروجك يا ارمان تجد زورقًا في انتظارك موهبًا بما تحتاج اليوم من الدراهم ولوازم المعيشة فتقلع الى اميركا بلاهل وانما هناك تجد الراحة

— اضغث على إبالة [1] بالنفي بعد الاسر

— لعهد قريب . فدعني اعمل الان ولا تمضي الا برهة من الزمان حتى استدعيك الى قرساي لا الى فينيسيا وهناك اقيم لك شفعاء اقويا تعتمد عليهم فيمدونك بالمال وتقوم بالمهام التي دعيت اليها

— لاشيء يهمني مما تذكرين من عناية ما احتاج اليها ووصاية لا اعلق مستقبلي عليها . انما عندكِ الحنظل والعسل ووعد منكِ يفتح لي باب الامل بحسن المستقبل . فكيف تكلميني بغير مرامي وتطرحيني في اقصى المرامي [2]

طلبنا التداني فابتعدتِ فليتنا   طلبنا النوى يامن تقابل بالضدِ

— لا اكلمك يا ارمان الا عن وداع ابدي وعندي ان تسافر بلا اوهام ولا غرور

فقاطعتها المركيزة

— اخدعيه يا امرانت الا ترين انه والحالة هذه لا يخرج من مضيقه . قد شعرت بذلك انا القتيلة بلا اثم ولا حرج لاني جريحة القلب مثله . . . . انك لظالمة

— ضاق صدري وضاع صبري فيا للحيرة ويا لهول المقام . . . . .

وكانت الكونتة من النساء اللواتي يقوين طويلاً على الاحزان والشدائد . فاذا طغح الاناء وزاد الحال اشتدادًا سقطن معيبات خاويات القوى واستسلمن بغير دفاع ولا معارضة . وقد تمكن حب ارمان من قلبها حتى

١ عد الهامة . فوق الدكة شرطوطة   ٢ جمع مرمى وهو المحل الذي يرمى به

اسى غلّة[1] لا تطفا بل علة لا تشفى ولو استطاعت لهدرت دمها لاقتلاعه من مهجتها . على انها حسبت وهي جاهلة ان تقطع املة في تلك الساعة الاخيرة فتنال ما تتوقع من النجاة . ان لعمري في الزمان اوقاتا يفعل بها القدر في الانسان بما في طباعه عكسه

واصعب شيء يجلب الهمّ والاسى تكلف شيء في طباعك ضده
هناك يد الحكمة وما في ذرع المرء الاّ الطاعة

— ظننت يا امرانت انك تأتيني بالفرج والعز فكنت هذا اذهبي بجمالي . ليتك ماجدت علىّ بهذه الزيارة وليتني قادر فاسلو حبك

— خلّ عنك حبي يا ارمان لا تمل لي انما ذلك خيرٌ لك وافضل . اريد منك ابتعاداً فلمَ انت تبتغي قربي

وعند ذلك فتح الباب وبان لهم رجل مبرقع بمعية الحارس فاستحوذ الاصفرار على الامرائين ووقع الرعب في قلبيهما اما ارمان فابث .. تأ .. غير مكترث . فقال الحارس

— قد انقضى الاجل المضروب ياسيدتيّ السمنا على اهبة الخروج

— مهلاً نريد الاطالة

— ليس ذلك بمستطاع

— قد اريتك الاوامر فلا تتمادَ الى غير ما يعنيك

— انني حامل اوامر جديدة تاركم بالاية . فاقبلي انني انتظرك

— اتبعك

فعند ذلك ارتعد الكنيّ كانه عرف ... مدام مريسكا وتقدم الى الامام يريد امساكها . فلاحت الالتفاتة الكريمة تتبع مضطربة خطوات رفيقتها فرجع الى الوراء مذعوراً متحيراً ... حراكا . و ... ردها لمست طرف ثوبه فصرخت ... ارتجفت ... السجن ووقعت على

---

1 عطشاً محرقاً

الارض مغشياً عليها ٠

فتقدم الغريب ينهضها وإذا بارمان قد انقض عليهِ باسرع من حسو[١] الطير ودفعهُ الى الوراءِ ٠

— لا تمس هذه الامرأة او تموت

فلم يجبهُ الكمي ومدّ يده فاغلق الباب ٠ وبقيت المركيزة خارجاً تفكر بما عساه يجري لها ٠ فنهيا في عقلها ما يعز استحضاره في مثل تلك الحالة ٠ ان تنقاد للحارس فتبقى حرة قادرة ان تعمل ما يروق لها لخلاص ارمان وعليهِ تبعته وهي لا تجسر على مكالمتهِ لعوائد تلك الحكومة حكومة شرّ وسوءِ حكومة طغاة بغاة

(١٣)

وكان من بقي في السجن باضطراب عظيم وقلق لا مزيد عليهِ تاخذهم افكار هائلة وبلابل شاغله يريدون انجارها فلا تنفجر ويبغون ايضاح تصوراتهم فلا احد يبتدي ٠ الى ان تصدعت السرائر من الكتمان فانكفاء[٢] ارمان بكلمات اسمعت هرج صبره في مرج صدره

— ايها السيد كنتَ من كنت دع عنك الخداع والغرور وافتكر بما هو خير لك واشرف ٠ استُ من الذين يرتضون بالمعيشة وهم حاملون اثقال الاهانات ومكبلون باغلال الذل والتعاسة انني اقلق الصخر اذا لم اجد لي منفذاً وخلاصاً ٠ قل لي على الفور ما تريد مني والاّ اخمدت انفاسك ٠ وعلى كل حال لا تنال مني جواباً على سوال حتى تخلي سبيل هذه الامراة فان المدافعة عن شرفها منوطة بي ٠ ركبت مخاطر جسيمة امل انقاذي فانا الان اجود بنفسي دون شرفها وعرضها ٠ كل هذه الاوامر الخفية والحيل السيئة الدنية والمخاوف الدائمة تعجز عن ان تزعزعني انني فرنساوي وما ادراك ما نحن

١ شربة ٢ اندفع

نحنُ الاسود بني الاسود سلالةً   من خيرِ آباء وخيرِ جدود
نسعى الى الشرف المؤثّل دائمًا   كلٌّ بقلبٍ كالحديد شديدِ

نلتقي المخاطر بقلوب اشد من قلوب الاسود ونخوض المعامع والاهوال فنظفر ونسود . فاقتلوني او امهلوني «طمع الاناء وكاد ان يتصدعا»

وكانت الكونتة جامدة مكانها تسمع وقلبها غائص في فضاء عذاب وضلالة مهلكة . والكي الغريب محدق بها يسمع بارتعاد كلام ارمان ووعيده له . وقد اذهله شأن الإمرأة فكظم كيده وقال بصوت خفيف محرّف

— من هذه الامراة

— ما يهمك ذلك

— اجبني ياسيو دي ناربل واعلم انك مع صديق

فسقطت الكونتة على الارض عند سماعها صوت الكيّ وهي تقول — ما غلطت هذا هو —

— كذبت انني لا اعرف لي صديقًا في فينيسيا واذا عرفت انكره . هذه مدينة طبع اهلها على المكر والخداع فهم يبذلون جهدهم لايقاعي غير ان شبا كهم ضعيفة يمزقها الريح اذا صفر

— قسماً بالله انني صديق اتيت لنجاتك

— لنجاتي

— اذا تبعتني نصل بعد قليل الى ساحة سان مارك فتنا كد وتثبت صداقتي وصفاي

— انك تهزأ مني كفاك مكرًا

— ايقن يا ارمان واعتصم بالامانة فهي اولى لك من سواها . قد اتيتك الان بملابس تخفية تسهل لك طريق الفرار فاستامن لاخلاصي وانت سالم

— ومن انت لاصدقك اعندك قاطع برهان يثبت امانتك . او من الحق ان تكلمني وانت كيّ . وما الذي يدلني انك لست هنا الاّ لتقرأ امور

نفسي على وجهي فتبوح بها . ايعدّ ذلك من الشهامة والشرف ام تلك اعمال نبلاء . فينيسيا

فرفع الغريب للحال يدهُ وكشف البرقع عن وجهو واذا بو الموسيو اندريا دندولو . فدهش ارمان عند مشاهدتو دهشةً عظيمة وطأطأ راسهُ كمن اخذه الخجل وارتج عليهِ(١)

وعندها صعدت زفرة من الزاوية التي التجأت اليها امرانت فلم ينتبه الكونت وقال

— ياموسيو دي تاربك قد وعدت اليوم مقسماً بشرفي امرأةً اعزّ الناس عليّ بان اطفي من البغضاء والحسد ما كنت قد اضرمت ضدك في فؤادي وابعد عنكما الشك ولو ساقتني اليها الظروف والبراهين فاخذت على نفسي ان لا ارى منك الّا صديقاً مخلصاً بل اخاً يجب عليّ اعانته وانقاذه من كل شده وتعهدت بان اقوم بالقسم ولا انقض الوعد . وقد بلغني هذا الصباح ان قد قبض عليك فعزمت على اخطر الوسائط واقربها من الغاية لنقض اغلالك . ومن ثم يتّضح لديكما انني أُحاذر طاقتي على الشرف والمروّة

فاحست امرانت بوخز ضمير مؤلم لمقابلة بعلها سوء ظنونها فيهِ بمجودة لا توصف وودت لو تسقط على قدميه تسترضيه فلم تجرأ . وقوي انقيادقلبها بالحب له والاعجاب بهِ لكتمانه عنها انهُ عارف بوجودها هناك حتى تتظاهر له هي نفسها وتقر بسوء عملها

واستكان ارمان على غير طبعهِ عند سماع اقوال الكونت المملوءة من الشرف الصحيح السامي . غير انهُ شعر بنقص في اعين امرانت قبالة ما نال الكونت عندها من الكرامة فثار ثائره(٢)

— لا ادري ياحضرة الكونت من فوّض اليك المحاماة عني والمجاهدة

---

١ عجز عن الكلام ٢ ثار هاج

في سبيل نجاتي . سر لا يعنيك امري . انني لا اقبل عليّ منك فضلاً

— انك في ضلال ولا بد من ارشادك واقناعك

— اتقدر على اجباري

— انني قادر على اجبارك وعلى قيادتك

— ذلك مستحيل عليك اللهم ان لم يكن لي وراء الجدار كنة[1] يقتلعونني اذا اومأت اليهم . تلك لعمري خيانة كبرى

— واذا اقسمت لك بحب من تدعي حبه استحيل قيادتك عليّ

— صدقت . . . انها لواسطة تزعزع اعلى الهم . وعليه انني اتبعك ارني الطريق

— ايّ طريق

— لا لا بل لنرجع الى ما كنا في صدده . ولنختر لنا ان شئت موضعاً منزوياً نتخذ لنا به السيف حكماً ننفض ما بيننا من الضغائن وليمشِ كل ويرجع من سلم منا ظافرًا فرحًا اذ قد تخلص من ضده . هذا ما اسألك ولا اطيعك الا اذا اجبت عليه

— هداك الله ليس ما تطلبه بممكن

— اذن ابقى

— انك لا تحبها

— احبها وابقى اذ لا اطيق لك جميلاً عليّ ولا احتمل ان تنتزع عليّ امامها باغاثة ومعروف ابقى لاني اريد الموت والموت حلو لي هنا . ابقى نعم ابقى وامل ان اراها مرةً ثانية فلا نفترق

— يا احمق ما اعرف ولن اعرف ابدًا ايّ صلة سرية تحدد حياتك بحياتها ولكن اعرف ان الصلة موجودة وهي طاهرة كنفسها ولذلك لا ارضى بموتك . فهل لا تحبها انت بحيث تساعدني على نجاتك

---

١ جمع كامن وهو المختبئ

فعضّ ارمان على شفتهِ حتى اثرت اسنانهُ فيها وقد شعر ان طول تمعو لا يزيده الا انحطاطًا وصغرا فتصبر لذا على حمل ثقل الجميل وقال

— اني مستعد لاتباعك

فتنهدت الكونتة اذ ذاك تنهد فرج • واتمّ اندريا

— خذ هذه الملابس وارتدِ بها عاجلاً . انك تجد في احد الجيوب حوالات على صيارف شتى في اوروبا واميركا فتعتمد على التي تستخيرها . وقد واجهت بنفسي الربان الفرنساوي الذي اتى بك . وهو يقلع صباح غد الى اميركا الجنوبية . فيتركك الى احد مناوات البحر المتوسط اذا لم تشأ اتمام السفر معهُ . انني احتطت كما ترى بكل ما تقتضيه الفطنة للتغرب • والان اذ تسترت بثياب التخفية هلمّ فاريك الطريق ولا يرعك ما تبصر فيها من الهيئات المفزعة

ثم هزّ يد ارمان بحنو ورقة وتقدم الى الحائط واخذ يقلب باصابعهِ • فنفر [1] الحائط للحال فغرًا عظيماً وبانت لناظرهم اقبية مستطيلة ينيرها سراج ضعيف . فاحجم [2] ارمان من الخشية رغماً عنهُ وظن ان هناك بعض الحيل الشيطانية لتملص الكونت منهُ . غير ان خوفهُ ان يسقط قدره لدى امرأته شجعهُ على اقتحام الخطر فاستعدّ للدخول اولاً اذا اوقفهُ الكونت

— باذنك عليّ ان اتقدم

واخذ ذراع امرأتهِ بلطف زائدٍ واندفع الى الامام فتبعهما ارمان بجرأتهِ العاديّة متحذرًا من الاخطار متأهبًا لردع من تسنّى لهُ مهاجمتهُ الى ان ابعدوا قليلاً عن السجن وهناك لمس الكونت صخرة ناتئة [3] فاغلق الفغر كما فتح بلا صوت وتوغلوا في الداخل نحوًا من عشر دقائق لا يسمعون الاّ تواقع اقدامهم في مسلك لا يطاق المرور بهِ لثقل هوائهِ وتعوج احنائهِ

وبعد ان قطعوا مسافة طويلة وقف الكونت امام سلم كان يفضي •

---

١ فتح ٢ رجع الى الوراء ٣ بارزة

عليه السراج لاخذ قليل من الراحة وقد اضنك السير امرانت ثم اشار اليها بالسماع

— بقي عليّ ان اطلعكما على شيء لابد منهُ لسعادة مستقبلكما وتاكيد راحتكما . قد وقفتما على اكبر الاسرار واخفاها على سرّ يذهب بصاحبه ان لمّح به او فشاه . ان الطريق التي سلكناها الان يجهلها كل الناس حتى الدوج فاحلفا لي بشرفكما انكما تبتعدان كل الابتعاد عن التلميح بها ولو باللحظ وانكما لاتحسباني مع ما ابديتهُ من الجميل الاّ كصاحب تطيب حياته بكتمان سرّه

فاقسم ارمان من قلب ثابت انهُ لا يبيح بالسر وانطرحت امرانت على صدر بعلها تقبلهُ ويقبلها ذارفين دموع فرح اوضح معانياً وافصح مبانيا من براعة اللسان

وقد ساءَ ارمان ما رآه من استرسال القرينين وتمكن الوداد من نفسيهما فتنهد حسرةً وكظم غيظه . ثم تقدم الكونت فاستلقت امرانت على ذراعه وصعد الجميع سلمًا يزيد عن مئة درجة ولما بلغوا اعلاه صفق الكونت بيده صفقة خفيفة ففتح للحال باب عظيم لم يكن احد وراءه ودخلوا قاعة عظيمة تمتد مدّ النظر يسطع بها ضوء مشعل ينير على جدرانها اوائل عذاب جمة هائلة الشكل رائعة المنظر ما اتخذته حكومة فينيسيا لاضطرار رعاياها الى الطاعة والاحترام . وما زالوا في السير حتى انتهوا الى حائط لا منفذ لهُ فاخترقهُ الكونت بحيلة اغرب مما سبق ونظر قليلاً حولهُ واذ راى ان المكان خلو من الناس اومأ اليها باتباعه فتبعاه . ولم يبعدوا الاّ قليلاً حتى ابصروا انفسهم في شارع سان مارك بين ضجيج واصوات من بقي هناك من السكارى واللاعبين

وكان الليل قد جلته غرة الصبح فالتفت الكونت الى ارمان وقال

— قد اقمت بوعدي ها انت حر لا معارض لك ولا مهاجم فعليك

بالرحيل . ستيفانو كرمتي يحتظرك بزووقو على البيازيتا وقد امر الربان الفرنساوي ان يرحبوا بك اي ساعة وصلت الى باخرتو . لك بعض دقائق لوداع من شئت فلا تمهل لان النهار قد دنا وعن قريب يشعر الحكام بفرارك

على ان كلام الكونت هذا بدلاً من تلطيف ارمان وتسكينه قد زاد ما في قلبه من الحقد والضغينة واثار كبرياه « كيف يمنّ عليه الكونت بوداع امرانت وهو يحسب نفسه مالكها ولا شريك له بها »

فانحنى قليلاً وهمّ بالمسير

غير ان امرانت بما عرف بها من الانعطاف والحنو على ارمان حسبت بانها اهملت فرضاً لا بد من اتمامه فاوقفته

— ارغب في محادثتك قليلاً يا ارمان مع ما يظهر لي من نفورك والفرصة ثمينة لا نضيعها

— اسمعك تكلمي

— قد وجبت علينا في هذه الساعة التزامات حب وولاء الى الصديق الصادق الذي انقذك وردك الى الحياة على حين اوشكت ان تفقدها . ان اخلاقنا بها نشبه حية اندعت من سط لها يد المساعدة . احسن الينا فلنقابل احسانه بالشكر والامتنان ولنجد برضانا لرضاه . وعليه لا بد لنا من الافتراق . . . . . اني اخص من قد كللني امه فلا تطمح ابصاري الى سواه ولا يحل في قلبي الاه . غير اني اقوم بوعدي لك فاكون دائماً مستعدة لمساعدتك . وابذل مالي في خدمتك ان مست الحاجة ودعتني اليه الاسباب فعليك الان ان تنسى ما دعاك اليه صباك من الطيش والمنكر وتسدل على السيئات حجاب التعويض وحسن السيرة لتعيش سعيداً عزيزاً

فتمرمر ارمان

— وبعد

— و بعد انني اطلب منك نعمة دونها الامل بطيب العيش وصفا الايام نعمة لا ترفضها لمن امضت حياتها في محبتك . خلِّ عنك حب اورور والشغف بها لتسترد ما فقدته من الصحة والعافية وامنحها انا في قلبها المقام الذي طردتني منه . واذا فعلت فانني اباركك كل يوم واوجه اليك صلاتي وافكاري . الا ترضى بذلك يا ارمان

— قبل ان اجيبكِ على ذاك دعيني القي سؤالاً واحداً تجيبينني عليه بحرية فكر . أصحيح ما تتوعدينني به من الفراق ام ذلك ناتج عن دلال او خوف . وهل من الاكيد ان لم يعد لي امل بجوارك . ولا لعله(1) نفس بقربك

— لا تموّهن(2) على نفسك . ما انا لك الا كشقيقة

— اذاً استودعك الله يا حضرة الكونت . استودعكِ الله يا حضرة الكونتة . اخبري شقيقتك باني انتظرها . وستعلمان بعد قليل ان قد استجلبتما غيراً لا يغتذي منذ الان الا بدمكما

والتفّ بدثاره ومضى الى البيازيتا لا يلتفت الى الوراء ولسان حاله ينشد « صفا لكِ الجوّ فبيضي واصفري »

فقال الكونت

— يا له من تعس بذيء . . . . يتقل على الانذال حمل الجميل . دعيه يا عزيزتي امرأنت لا سهّل الله له طريقاً

---

(١٤)

ولما غاب ارمان شعر الكونت والكونتة براحة وفرح تقصر عن وصفها الاقلام . قد تخلصا من رجل حملها ثقل الاحزان والاضرار فاصبحا وحدهما لا مزاحم ولا معارض . غير ان الكونتة فكرت بوعيد ارمان وتهديده ان يخطف اختها الزهرة اليانعة وقد اودعها اياها ابواها للمحافظة عليها

١ رجاء ٢ لا تعد

فتقطب جفناها وهطلت الدموع من عينيها — ويلي قد عظم الخطب . . .
أأصرح بما في نفسي —

فتركها الكونت تنزه عنها لعلمه ما بقلبها من الاحزان وهو معتبر سكوتها كما اعتبر سابقاً كل افعالها . وبعد قليل قالت له

— ياعزيزي اما آن رجوعنا الى البيت

— انا رهين امرك

— انني مشغولة البال قد دخلت سجن ارمان وبعيتي امرأة لولاها استحال عليّ الدخول . امرأة تعيسة قضت عمرها بالشقآء فعاقبها الله ان ارسل لها ضربات حصر عاقبتها الذل والعار . انها بقيت لاشك بالسجن قبيلة هواها . سر بنا يا اندريا نستقصي اخبارها

— لا تعلمين ياعزيزتي هذه الامرأة من هي . قد اطلعت في هذا المساء على حقائق رائعة عنها . . . . انها . شقية . . . اشقى خلق الله . . . . وما علينا . . . اري انك حقيقة بالادعآء ان حبها الزائد قد غسل سابق اثامها فانا اجتهد في نجاتها بددي الان اضطرابك وهلمّ الى البيت لان التعب قد اضناك

— لا يا اندريا خلاص المركيزة قبل طلب الراحة

— إرضَي فانها ستنجو

والتفت الى الورآء فابصر رجلين يتمشيان مشية معروفة دعاهما باشارة خصوصية اليه وهمس في اذنيهما شيئاً فرجع الواحد الى حيث كان واتجه الثاني الى قصر الدوج

وواجه الكونت امرأته

— قد تممت اوامرك فتممي اوامري بان تذهبي الى البيت لتستريحي

— في الحقيقة انا محتاجة الى النوم ما ازعجني هذه الليلة جعلها الله اخر عهدنا بالكدر والعذاب

وسارا من ثم نحو القناة وامرانت تفكر بعظمة زوجها وسلطته الغريبة . كيف ان علامة صغيرة منه كفت لنجاة حيص من المضايق مع ان الدوج لا يجرأ على مثل ذلك . فودت لو تقف على كنه حاله . غير ان نجابة(١) الكونت لها وما ابداه من كرم النفس منعها ان تفاتحه بمثل هذه المسائل لا سيما وفي سوّالها ما يظهر شكوكها وسوء ظنها فيرجع الخلاف ما بينهما وتعود ايامها اشقى من ذي قبل. ولعلّ بسوّالها افشاء سر زوجها وبالتالي هلاكه كما قالت لها . وكيف تريد هلاكه لاطفاء غلة فضولية وهو المتفضل عليها والمحسن اليها . فعزمت لذلك على الامتناع والصمت

ولما وصلا الى القناة ركبا زورقهما الى المنزل فقالت امرانت

— قد سافر والحمد لله

— من يعلم يا عزيزتي . انه اخبث من حرباء . كل يوم يغيّر احواله وملابسه

وقضيت مسافة البياز بنا بسكينة لا توصف واسترسال يبدد الهموم ويشتت الغموم وبحر المتحابين ساعات من الحياة يسكران بها من خمر المسرة والصفاء . حتى وصلا الى القصر . فصعدا واختليا كل بغرفته

وعند القيام من النوم امرت مداموازيل دي سانت مام باعداد زورقها فاقبلت اختها تعتني بتطيبها وتداهنها(٢) بالكلام الرقيق وهي جامدة باردة غير مكترثة . وبعد زينتها ركبت زورقها وسارت تفتش عن ارمان في كل شوارع فينيسيا واقنيتها وتسائل عنه في كل قهوة وملعب كأنّ بينهما موعداً باللقاء . ثم امرت ان تقاد الى الباخرة الفرنساوية رجاء ان تجده . وكانت الباخرة قد اقلعت فانقبض قلبها ورجعت الى القصر حزينة اشد الحزن تأمل ان تصلها رسالة او خبر وتنتظر ما لا تعلم حتى تمضت عليها الايام بالوحشة له والخوف عليه من النفي او الحبس فرجعت تلك

١ أكرام ٢ تملقها

الزهرة تذبل وعاودها نحولها

و بقيت مدام دندولو على سكوتها العادي مواظبة على الاهتمام باختها والسهر عليها بصبر طويل مرضية لها بكل شؤونها محتملة كل تو بيخاتها بحلم عجيب

وقد طالت عليها غيبة المركيزة بر يسكا فارسلت تستخبر عنها . واتى الجواب ان وصلها كتاب من اهلها يستدعيها الى ميلانو بكل سرعة فرحلت

و بعد ثمانية ايام من سفر المركيزة اقبلت رسالة منها الى مدام دندولو هذا نصّها

« قد سافرت ولم اشاهدك ولكني اعلم ان يدك خلّصتني من وهدة »
« الهلاك . انتِ انجيتِ ارمان وانا تبعته وقد لحقت به ونحن الان معاً . »
« لا يبعدني ولا يرحب بي . فانا عنده بمثابة متاع من البيت . يكلمني ماندر »
« ولا يزال من اجلك في حالة اخشى عليه منها . يحبك حتى انه يبغضك »
« وقد حرّم عليّ مكاتبتكِ واخبارك اين نحن . وانا الان اكتب اليكِ خفية »
« لأشكرك على معروفك . »

« لا تسلي عني فقد امسيت عبرةً لمن اعتبر . رماني الحب فاصماني [1] »
« انني اشعر اول مرة بهياج في داخلي اشبه فعله بفعل النار وعليه اكفّر »
« بآلامي عن سابق اثامي . لا محبة بالله بل برجل يكون سبب موتي وعندي »
« من ذلك سابق علم . . . . »

« استودعكِ الله ياعزيزتي قد حكم عليّ بعذاب واحزان ابدية لا استصب »
« عليها العزّ والمجد بعيداً عنه . احذري به دائماً . فقد توسمت [2] من عبوسته »
« وتوحده انه يبحث عن اخذ الثار منكِ . وقد نبهتكِ الى نفسك فتنبهي »
« وعليك السلام »

صديقتك المخلصة فيوريتا بريسكا

ولما فرغت من قرآءتها اشفقت على تعاسة المركيزة وارت الرسالة الى

١ قتلني ٢ استطعمت

زوجها فتلاها ثم ردها لها وهو صامت فقالت

— اذن انت انقذتها من السجن

— ألم اعدك بذلك

— عجبًا أأنت قدير الى هذا الحد في فينيسيا بلد الخداع

— قد سألتني يا عزيزتي امرانت ان اثق بك كل الثقة ففعلت وانا اليوم اسالك تمام الثقة بي فلا تخيّبيني

فانطرحت على صدر زوجها بدعةٍ [1] وحنوٍّ ثم قالت

— كل منا في قلبهِ سر عظيم محتوم عليهِ ان لا يبيح بهِ ٠سر ترك غيمة في سماء صفائنا فلنصبر على هذه الغصة التي بلانا بها الدهر ولنضرب عنها صفحًا فليس اسرة بلا حزن ولا انسان مفلتًا من حكم الله

ومن ذلك الحين اضربت عن الكلام بهذا الشان . وكثيرًا ما كانت ترتعد فرائصها عند ما يفارقها بعلها وتطول اقامته خارج البيت فتعيد الى مفاتحتهِ غيرانها تأبى نقض وعدها . فيترآى لها زوجها تارةً متجولاً في تلك المخابيء العظيمة والحبوس الهائلة والدهاليز الشيطانية مكتنفًا بالمهالك والاخطار وطورًا قائمًا بين البغاة يحكم بالاعدام والعذابات على اناس اصابتهم الحكومة بجورها وهم ابرياء يطلبون من الله اخذ ثارهم بمعاقبة ظلاّمهم وسكب الضربات عليهم . فيجرح ذلك فوادها ويلقيها في مخاوف واحزان لا يقوى عليها الحجر الاصم — لعن الله بلدًا ملكها الجور فحمل اهلها من الاتعاب ما لا يطاق ورماهم بمصائب واحزان دونهم ودون التخلص منها خرط القتاد [2] . . . احمد المولى بكل ساعة على انني لم ارزق ولدًا يخلف والده في خطتهِ . . . . باركك الله يافرنسا قد حلّ العزُّ في ارجائك فجللت بالسرور والاعزاز . اهلك اسعد خلق الله لا يعرفون المصائب ولا طرق قط على مسامعهم خبر جورٍ واسراف . ليتنا بعض خدم خدمهم فنعيش براحة

---

١ انبساط ٢ مثل يضرب لما يعسر الحصول عليهِ

وسكينة في ظل تريانون وفيرساي . نستنشق هواء نقيًا هواء الحرية والاستقلال —

اما اورور فلم تتغير احوالها من الاعتلال والنفور . واختها قائمة ابدًا امامها تلاحظها وتراقبها الليل والنهار لخوفها من ارمان ومن تهديداته . وهي ملازمة مخدعها لا تبرحه مطلقًا كحبيس اقفل عليه باب غرفته فلم يعد يعرف سواها

وكان الصيف في فينيسيا لا يطاق لفساد الهواء بالابخرة الصاعدة من الاقنية والبرك وتوالي الامراض المهلكة والاسقام الموبقة المرهقة [1] وزد على ذلك بلية اقل خطرًا ولكنها املّ واتعب وهي انتشار البعوض في البيوت انتشارًا لا يكاد يحيط به الوهم بحيث لا يبقى انسان الا يملأ القرص جسمه بالبثور [2] ويهلكه الاحتكاك وتضعفه فضلاً عن ذلك شدة الحر وركود [3] مياه الشرب . ومن مكّنه غناه ان يبتعد عنها في الصيف انتقل الى نهر البرينتا وسكن تلك القصور الشاهقة المرتفعة على شاطئيه صفوفًا متآزرين من الرخام الابيض النقي الوضاح .

فلما اقبل فصل الصيف واخذ الحرّ بالازدياد خافت امرانت على اختها لانفعالها العجيب وذهبت واياها الى المصيف على الرغم منها امل ان تلطف الخلوة نيرانها وتسكن العزلة احزانها فتسلو ارمان وتلهو بالتجول عن ذكره

ولم يات مصيف البرينتا بتغيير في حالة اورور . فانها داومت انفرادها وانقطاعها في حجرتها لا تخرج منها الا ما ندر الى حديقة حول الدار كانت تقضي بها اوقاتًا بحيرة وافتكارات مبلبلة . واعين الرقباء محدقة بها من كل جانب حفظًا للامان ودفعًا لاسباب القلق

واستتبت [4] الراحة في بيت دندلو لابتعاد ارمان وانقطاع ذكره . فسرت امرانت بانه نسيها ونسي اختها . غير انها احبت الوقوف على اخباره فكتب

١ المهلكة ٢ الحبوب ٣ سكون ٤ تملكت

الكونت دندولو الى اغلب الحكام واستعلم جهده عن مقرّ المركيزة بريسكا ليتوصل بذلك الى الوقوف على مكان ارمان فجآت الاجوبة كلها غير وافية بالمراد

(١٥)

واتفق ذات يوم ان دعي اندريا من مصيفهِ الى فينيسيا لامر مهم . فاقلع اليها عاجلاً واوصاهم ان ينتظروهُ في الغد

وفي اليوم الثاني ثارت العناصر ثورةً غير عادية اصابت البريتا فزعزعت اركان قصوره وقصفت اغصان جنانهِ وحنت الى الأرض رؤوس اشجارهِ . وامرانت جالسة قرب احدى النوافذ تنتظر رجوع بعلها وهي تنظر السمآء تسلسل بروقها في عرض السحاب وتتامل هيجان النهر واعتكار المياه اذ ابصرت في ذلك الاختباط زورقًا تدور بهِ العاصفة كاللولب في وسط الامواج ورجلان شديدان يقذفانه بسرعةٍ لايحاولان النجاة من ذلك العراك فهرعت [1] الى الشرفة وصرخت باضطراب

— اهذا اندريا . . . يا ربّاه . . . يا للخوف . . .

وفي اثنآء ذلك مرّ الزورق مرّ السحاب تحت الشرفة . وتميزت امرانت من خلال البرق وجه ارمان الجميل وهو رافع كمثة يشير بها اليها هزءا واستخفافًا فصرخت ذعرًا ورجعت الى الورآء

— قد اتى . . . يا لجنونه ومخاطرتهِ في وقت كهذا . . . انهُ اجمل وابرع من ذي قبل . . . ليت اختي لا تراه . . . اللهم انت المدبر الحكيم

واسرعت لاهثةً خائفة الى غرفة اورور وكانت نائمة مستغرقة فوقفت تتأملها

— واحبيبتاه . . . كيف هزلها الغرام . . . لو رجعت امي لتعصر عليها

١ اسرعت

ان تعرفها

و بعد قليل هبطت ذعقة رعدٍ فتضعضت البيت من اساساته ثم مطر شديد غمروجه الارض بلمحة طرف واجرى سيولاً عظيمة من كل جانب .
فافاقت اورور مرتعدة

— ما اقبح هذا النهار يا امرانت ان اندريا لا يرجع اليوم

— انهٔ يرجع . . . لا شك انهٔ يرجع . . . والاّ نذهب نحن اليه

— الى ڤينيسيا

— نعم الى ڤينيسيا . . . بلا ريب . . . وانتِ . . . ياعزيزتي اورور . . .
من حيث انك ترغبين . . . فانا لا اعارضكِ . . . اوصلك الى دير الجزيرة الصغرى فيصطلح حالك وتحسن صحتك ان شآء الله

— ومن اوثق فيك هذه العزيمة يا امرانت . أغيابه نعلك ام خوف العواصف . فانني اعجب من انقيادك لي الان وانت لاتنا لين قط في معارضتي وممانعتي

فاحمرت امرانت وضبطت اضطرابها مخافة ان تلحظهٔ شقيقتها وقالت

— اقرّ لكِ ياعزيزتي بانني اخاف سكنى هذ القصر الكبير اذا لم يكن فيه اندريا . اريد الذهاب الى ڤينيسيا واخاف ان لا اقوى على مراقبتك فيها . فانك تمضين ليلك على الشرفة والكنال غراند غاص بالزوارق . . .

— وانتِ تخشين ارمان . . . .

فارتعدت الكونتة عند لفظ اسمهِ

— نعم انني اخشى ارمان

— ان خشيتِ والاّ سيدعوني يوماً فاطير اليه ولو كنت مغلولة الرجلين واليدين

— لعلك مصرّة على فكرك الى الان

— كل الاصرار . قد ذوت حياتي كزهرة في الظلّ فاذا سطعت الشمس

تجدد رونقي وهمتي فاهب من غفلتي

وما اتمت كلامها حتى سمعتا صوت ارجل في داخل الدار فاصغتا للحال وانتظرتا ما عساه يكون . مدام دندولو بحيرة ورعب لعلها ان ارمان قريب منها. وشقيقتها بفرح وحبور ظانة ان الذي قد حرمها لذة الرقاد واذا بها بالامل والانتظار اتى يريحها من كل احزانها

وعندها فتح الباب ودخل الموسيو دندولو كالح الوجه غائر العين تنفضه الحمى «كما انتفض العصفور بلله القطر» فقالت امرانت

— كيف تيسر لك السفر ياعزيزي بوقت كهذا . ما الم بك

— لم يلم بي شيء والحمد لله غير ان شواغل مهمة . . . .

— كنت ظننتك لا تحضر الا في الغد

— اجبرت على الرجوع في هذا المسآء . . . هل زاركما احد بعد ذهابي

— لم يزرنا احد

— بقيت اذن وشقيقتك وحدكما كل النهار . وانت ياعزيزتي اورور هل العواصف تزعجك وتخيفك

— تسبب لي ازعاجاً والماً لا اقوى عليهما واني الان على غاية من التعب والاحتياج الى الراحة فاسمح لي ان ادخل مخدعي وانام

وقبلت بفتور جبهة شقيقتها بغير وداع ولا سلام وانحنت برقة امام صهرها وتركتها . فقال الكونت

— ينبغي عليك يا امرانت ان تناظري اورور وتراقبيها مراقبة اعظم وانشط مما في الماضي . . . قد اقبل يوم الكفاح والبراز فعلينا ان نستعد للمدافعة والعراك

— قد نظرت اليوم ارمان

— كيف نظرته . . . ياالله

— انني رايته من امد وجيز ماراً على البريتا ومعه نولي فينيسي

— أآن له وقد وصل اليوم الى الميناء .. انه جاء بنفسه جواباً لرسائلنا فتهيئي يا امرانت لفاجع واحزان جديدة . هذه ثمرة حبك لرجل ليس اهلاً لاقتبال حمايتك ومحبتك . وقد بلغت انه عاد الى فرنسا فاحتقر وصايانا ولم يعتد الا بالحوالات التي اعطيته اياها فتعلق بلعب الميسر[1] واخذ يتجول من بلد الى اخر وهو متنكر بزيّ غريب ولهذا لم نقف له على اثر

فطأطأ الكونتة راسها و بكت

— اواه . الدم . الدم .. اسمعه دائماً .. كأنه هو ..

وأردف الكونت

— وقد كسب يا عزيزتي مبالغ لا تحصى فطرد المركيزة بريسكا بعد ان استرقها . ولما نال ما يتمناه من الثروة والغنى انثنى راجعاً الى ايطاليا باقرب طريق ووصل اليوم الى هنا . وهو غني قدير على اتمام وعيده وانفاذ سهامه بنا . لا افارقك حتى ....

— حتى م

— حتى تامني من كل طارىء

ولم تكن امرانت تخشى على نفسها او على شقيقتها لعلمها بما لزوجها من السلطة والاقتدار . غير انها كانت تخاف على ارمان وقد نبذ ما عليه لبعلها من معرفة الجميل فاتى يقحم بازدراء رجلاً انقذه من الهلاك وردّ اليه راحته رجلاً قديراً يوقعه لو شاء بتهلكة لا يجد له منها مفرّاً

— ارفق به يا اندريا فانه جاهل لا يعرف ما يصنع

— انني مسئول بكِ و باورور امام الله والناس فاعدكِ ان لا اهاجم . لكن انا عورضت فمست الحاجة ادافع كالاسد ولا ادع فريستي تفلت من بين يدي

— وهو لا يحجب .... باللاسى ...

— انه لا يحسب ولا يحجب بل يسير بجراءة وتفنن ونقل الحكم يكاد

---

١ القمار

يطرحه . . . يعلم عن يقين من اي مكان قد نجا ولا يخاف ان يرجع إليه.. انه لاقسى من الجلمود

ــ بل انه ياعزيزي غريسة حسنة اهملها الزارع فلم تعطِ الاَّ اثماراً فجة . قد اتبع اهواءه فطارت به وهو يخضع لها

ــ بئس الخضوع

ــ أمن الواجب ان يحجز على اورور

ــ بل تبقى حرة كعادتها غير ان المراقبة ينبغي ان تكون اشد واحزم

ــ اسهر عليها بذاتي

ــ احرى لك ان تنهي الحشم لمناظرتها والضرورة تقتضي الشروع بالعمل لان ارمان رجل مخيف لا تحول دون عزمه المصائب يجتهد و يسعى بالوصول اليها باقرب وقت . واختباط الجوّ في هذه الليلة وشدة المخاوف يساعدانه على بلوغ مناه . غير اني قد احتطت بوسائط نقوى عليه فسكني بلبالك

ــ وهو

ــ قلت لك انني لا اهاجمه ولا اريد له مكروهاً . ان افعاله وحدها تكون الجانية عليه

وقرع الباب فدخل خادم وقدم الى الكونت رقعة مطوية وقال

ــ قد اتى بها ياسيدي الان رسول تحت المطر والعواصف انها ذات اهمية على ما يظهر لي

ــ اشعل النار ليصطلي الرسول وقل له ان ينتظر

ــ سمعاً وطاعة

وفض الكونت الرسالة وقرأها وقد اصفر وجهه واضطرب في ظاهره عند تلاوته اول سطر . ثم طواها وقال

ــ ان ما ذكرته لغاية في الصواب . في هذه الليلة تعلم اورور بان اليوم الذي تدعوه من صميم قلبها اقبل . . قد فاجأ ياعزيزتي امرانت من قليل

خدمنا كتاباً لها غيران المراقبة نشطة ورجالنا اشداء لا يدعونه يتملص

— يا الله . . . .

— لا يخفاك ان المسيو غراندقد ارسل لنا رجالاً للمحافظة يعول عليهم وهم موزعون على كل جهات القصر وواحد منهم في شرفة او رور مختبي ٌ وراء صناديق الزهور . . امل وطيد بانه لا يقوى علينا ولا يقدر على التخلص من حبالنا

وقد اوقع كلام الكونت الخشية في قلب امرانيت من ان تفقد اختها فنهضت مسرعة تريد الوصول اليها واذا بالخادم قد اقبل حاملاً رقعة ثانية ودفعها الى سيده

— ان الرسول نسي ياسيدي تأدية هذه الرقعة

فتناولها الكونت وتلا

«سلام على جمهورية فينيسيا وعلى كل اشرافها وخصوصاً على كبير الطوائف»

«الكونت دندولو اما بعد فقد حكم علي بالاعدام . ولم اقاس الموت بل ازدريته»

« وعلمت الان من فراري واقمت بما توعدتك به والحر لا يسعه الا انجاز»

«وعده او وعيده . . . فانت تقرأ هذه السطور وانا الذ بمحادثة اورور »

«رقباؤك يحادعوني وانا خادعهم . يستحيل عليك قبضي كما فعلت في السنة »

« الماضية . اني غني ولبق لا تقوى عليّ المصاعب ولا تتعذر عن همتي المطالب»

« ابداً اقطعُ البلادَ ونجمي   في صعودٍ وهمتي في سعود»

فابتسم الكونت ابتسامة امتهان واحتقار وقال

— يا له من احمق رقيع ولكن من يعش يرى . . . ثم عاد الى قراءته

«قد شبّت الحرب بيننا فاستعد انها حرب شديدة غير عوان [1] تذهب»

«باحدنا . ونفسي تحدثني با لظفر والغلبة . . . . الى الملتقى . . الى الملتقى»

« حين واين اشاء »   «ارمان »

---

١ لا تحللها فتر للراحة

وكانت امرانت تمع كتاب ارمان وعبراتها تتهافت من عينيها تهافت المطر فقالت بصوت قطعة الرعب

— ياصديقي ما تعتد ان تصنع

— قد اتعبني هذا الرجل واماتت حنوّي عليه وطول اناتي . انني اسلبة ما منحتة من الحرية وارجعة الى حيث كان . واذا اطلت التهامل كَبُرَ امره وذمني الناس

وطلب الكونت مواجهة الرسول فلم يجده لا هو ولا رفقاء المسيو غراند . فخامر [1] الريب مدام دندولو وهرولت الى غرفة شقيقتها فوجدت نسآءها نائمات امام باب غرفتها والغرفة خالية لا احد فيهـا وابصرت رقعة مرمية على الارض فتناولتها واذا بها

«قد دعاني قتبعته . . . استودعكم الله »

«اورور»

وعندها وقعت الكونتة على الارض وصرخت صرخةً ارتجت لها اركان القصر . فاقبل الكونت ينهضها

— ماذا جرى بحول الله

— اورور . . . عزيزتي اورور . . قد ذهبت . . . قد انتشلها . . . ارسل رجالك تستخبر عنها . . . والّا اموت قهرًا

فازبد الكونت من الغيظ

— يا له من شقي . . . قد صدق . . . ولكن لابد ان اجده

---

(١٦)

في ليلة زاهية زاهرة من شهر تموز يحلو الاكدار صفآء سمائها وتلألوء نجومها ويطيب النفوس نسيمها البليل العبقري وتفرج الخواطر نقاوة مائها وتماوجه

---

١ داخل

الخفيف كان زورق كبير الجرم ثقيل الحمل يقطع بحيرة كومو في بلد جميل البنيان كثير الجنان ساكن سكنة خوف ورعدة كأن حادثاً رائعاً اناخ بكلكله عليه فابعد السكان عن ارضهم المخصبة الضاحكة بالنبات وتركها خالية خاوية. وكان الصدى يردد من دقيقة الى دقيقة دويّ رعد بعيد تتناقله الجبال و يستطيل في السهول . . . « قد دلت الحرب وهرجها من تلك المروج اللينة المادئة واندفعت يد الانسان تدمر ما صنعت يد الله من آيات البداعة.»

وكان الزورق الذي نوهنا عنه يتقدم ببطوء كليّ يوشك قذافه ان تخل يداه وعزائمه لشدة تعبه . وفي اثناء السير سمعت قصفة مدفع ارتجت لها تلك النواحي فرفعت الحجاب امرأة في شرخ الشباب وقالت

— ستيفانو اذا لم نسرع يعسر علينا الوصول الى المحل الذي نقصده

— اعرف ياسيدتي لكنّ الزورق ثقيل وانا وحدي ادبره على هذه المياه المتكاثفة

— ما العمل اذن وكيف التدبير ان شقيقتي تحمل اوجاعاً لا مزيد عليها وتريد النزول الى البر . . . ولكن اين انزلها ولا ارى احداً في هذه الجهات التي طرد الخوف كل اهلها

— لوان سيدي هنا لاعانني على التقذيف . فانا الان ابذل الجهد والله لا يهملنا

— الا نزال بعيدين

— لم نصل بعد ياسيدتي الاّ الى ثاني بحيرة من كومو والمكان الذي نقصده واقع بين الثالثة والرابعة

— انا اعينك ولعلّ اعانتي تأذن لك بقليل من الراحة

— انت ياسيدتي . . . انتِ

— ارني كيف تعمل

— لا تقدرين على هذه المشاق

— يقدرني الله

— لم تخلق يداك لمثل هذه الاشغال فانك تمضين ساعات ولا تستطيعين ان تدفعي الزورق

وسمعت الامرأة صوتا من الغريفة يدعوها فاسرعت للحال

ـ ما لكِ يا عزيزتي ماذا تريدين مني

— اريد الموت هذا ما اطلب من الله ومنكِ يا سبب هلاكي

— تنشطي ياعزيزتي تنشطي فعن قريب نصل

— انني اتوجع انني اتوجع . . . .اه . . . ياالهي ارفق بي وارحمني

— تريدين قليلاً من الشراب الذي يقويك في مثل هذه الاوقات

—لا اريد شيئاً . . انزلوني . . . والا ارتمي في البحيرة

— امركِ يا عزيزتي . . . ارسي بنا ياستيفانو امام هذه القرية التي تظهر عن يمين البحيرة . لعلنا نجد مكاناً نمضي به هذه الليله وفي الغد نرحل

— حسنًا ياسيدتي

وصوب راس الزورق الى القرية المشار اليها وبعد اشد العناء وصلوا الى الريف فانزلت المريضة ونزل كل من كان معها وتقدمت الامرأة واخذت تنقب عن مكان تيسر لهم بو الاغاثة الى ان وقع بصرها على راهبٍ جالسٍ وراء نافذة غرفته مشتغل بالصلاة والعبادة فسارت اليه وابتدرته بالتحيه . فامسك الراهب قليلاً ثم قال

— من انتم

— غرباء نطلب مأوى لفتاة مريضة

— من اين اتيتم

— من فينيصيا

— كم عددكم

— امراتان ومعنا خدمنا

— ما اسمك ِ

ـ الكونتة دندولو

— أما لك بعل

— نعم وهو منهزم من جهة اخرى وسيلحق بنا

— الى اين انتم ذاهبون

— الى بلبيانينو

ـ تعرفين اذن المركيز بريسكا

— قد دعتنا كنّته

وكانت وراء الراهب عجوز هرمة تلقنه الاسئلة التي يلقيها وهي تَسمع ولا تُسمع وتنظر بحيث لا تُنظر . فجسّت الكونتة عند ما تأكدت ان لا خطر يهددها وجددت الحديث

— قد نفاكم الفرنسيون لا شك

— لم نرهم الى الان

ـ اذن الجمهورية الموقرة

معاذالله

— فالأمبراطور العالي الشان

— كلاّ

ـ ما الداعي لفراركم

وتبسمت الكونتة رغما عن حزنها

ـ ولماذا شدة حرصكما فلا تفتحان الباب ان الفرنسيين بعيدون عنكم فلا خطر يخشى

فتوقفت العجوز عن الاجابة واختلت بالراهب قليلاً ثم رجعا فقال الراهب

— تمهلي يا حضرة السيدة اننا نفتح لكم اذ لا خوف علينا من الفرنسيين

وفتح الباب فاشارت الكونتة الى اتباعها فدخلوا جميعاً والعجوز ترحب بهم (ولعلّ ذلك الترحيب لزيادة طمأنينتها) ثم اعدت فراشاً ناعماً لاوروروانتها بكل ما يلزم لراحتها وجلس من بقي لتناول الطعام فقالت امرانت

ــ انكما هنا في نعيم ابديّ . . . ما احسن موقع هذا البيت بين المتنزهات الاريجة والمناظر البهيجة

ــ بلبيانينو احسن لو تدرين

ــ نعم يمدحون بديع خطتها وطيب هواها

ــ ولكن كيف يمكن ان تعايشوا المركيز بريسكا وهو هرم عندنا من اخباره ما يذهب بالعقل

ــ وما اخباره

ــ يؤكدون لنا انه ساحر هائل يمضي ليله باستحضار الابالسة ومداعبتهم

ــ أصحيح ما تقولين

ــ غاية في الصحة . ولذا لا يموت وقد بلغ من العمر نيفا ومئة سنة

ــ تعرفين كل هذه التفاصيل

ــ بكل دقة واعرف ايضاً اخباراً تسرك معرفتها كي تحذري

ــ قصي عليّ بعضها ان لم يزعجكِ ذلك

ــ اصغي جيداً . . . « بلبيانينو قرية مبنية بناء غريب النسق عجيب النظام يوجد امام مدخلها صنما مرمر بهيئة ارعب من ان توصف عاديان[1] لا يعلم من اي عهد . وهذا المدخل يوصل الى ساحة عظيمة قائمة فيها اصنام عديدة قديمة وبالجانب الاخر باب كنيسة يعلوها سهمان من فضة واصل هذا البنيان العظيم الشاهق كنيسة صغيرة ومنسك حقير لم يكن يسكنه الاّ الزاهدون بالدنيا الراغبون في سعادة الاخرة . وقد ثار مراراً

١ قديمان

على اولئك النساك كفرة ارديآء وقت تحزب الكلفيين والجبليين [1] و بينما هم ذات ليلة يرتلون و يسبحون الله اذ قرع الباب بعنف وانبثقت اصوات اقوى من زئير الذئاب بالشتم لهم والاهانة .فاختبأ وا في غرفهم واستمروا في الصلات وهم موقنون بالهلاك وقد تمكن الاشرار من كسر الباب فدخلوا توًّا الى قلب الكنيسة وانتشروا فيها كل يدنس شيئاً من المكرسات ثم جلسوا على المذبح واستخدموا اواني التقديس للمآكل والمشرب حتى اذا فرغوا عمدوا الى غرف النساك فذبحوهم كما تذبح القطعان واحرقوا المنسك وحاولوا احراق الكنيسة فلم تؤثر بها النار لصلابة احجارها. وفي الغد وقف بريسكا رئيس الكفرة على رسوم بليانينو فاعجبته خطتها ومناعة مركزها فابتنى له بها ثكنة حربية

ثم تناسل بنوه فشادوا المسكن المجاور للكنيسة واقاموا الجنان والحدائق بما هي بليانينو عليه الان : وقد حل عقاب الجد على هام بنيه فولد اكثرهم مصابين مشوهي العقل والجسم ومن بقي سحرة يناجون الابالسة و يستخدمونها لاتمام غاياتهم .ومن عجيب ما يروون ان النساك منذ يوم قتلهم بما برحوا ان يتراآ وا كل ليلة في الساعة التي دنس بها الهيكل فتقرع اجراس وهمية تملأ الفضآء رنيناً وتقوم الكنيسة كما كانت قبل وتشعل القناديل وتظهر الصور والتماثيل فتبدأ الكهنة بالتسابيح والترانيم وتنزل اصنام المرمر عن قواعدها وتدور حول تلك الاماكن مسمعة وقع اقدامها الحجرية . ثم يتحول ذلك المشهد الى برك دم . .

على ان هذه التجليات قديمة العهد كما ذكرت وهي السبب الوحيد الذي يبعد السكان عن بليانينو والمركيز بريسكا الذي نقصدونه الان قاطن وحده ذلك البنآء المخيف منذ خمسين سنة لا يخرج منه ولا يدخل فيه احد . وهو

---

١ حزبان احدهما تشيع للبابوية والآخر للامبراطورية في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ونتج من اختلافها حروب ومصائب كثيرة باقية آثارها في ايطاليا الى يومنا هذا

يخشى النساك لاشك ولولا حماية الشيطان له لما بقي بين تلك المرائي التي تظهر له فظاعته وفظاعة اجداده »

وتوقفت العجوز قليلاً ثم اتمت

وقد استدعى اخيرًا كنّته اليه وهي تقاسي فرنسا ما لا يطاق من العذابات وتحمل من مظاهر النساك ما يشيب الطفل من الاوهام

فتأوّه الراهب وقال

— مسكينة هي . . . قد بلغت عنها اخبارًا تقضي بالاسف . . . وهي مريضة الان وقد تغيرت حتى تعسرت معرفتها على اهلها . وعندي ان زيارتكم تكون لها تعزية كبيرة في خلوتها

— هذا اكيد

— ولكن لا اظن انكم تملكون هناك تمام الراحة والسكينة لا سيّما وعن قريب يصل الينا الفرنساويون وهم لعمر الله افظع واقسى من جميع الكلفيين والجبليين

— انني فرنساوية ياحضرة الاب

— انك فرنساوية . . . اعذريني ياسيدتي . . . فانني اصرع في مثل هذه الساعة . . . ان الفرنساويين هم الطف خلق الله واشبهم

وعلا الاصفرار وجهه ووجه العجوز من الرعب فتبسمت الكونتة وقالت

— لا بأس عليك ياحضرة الاب . ان بعلي طلياني وانا متوطنة في ايطاليا من زمان طويل . فضلاً عن انني انكر اناسًا قتلوا اهلي واصدقاي وقتلوا ملكًا وملكة عطر الارض نشر فضائلها فانا اخشاهم مثلكم ولا اريد الاّ بعدهم

غير ان الراهب وخادمته لم يأمنا الى هذا الكلام وبقيا خائفين ان يقتص منهما الفرنسيون على ضيافة اناس تشيعوا لغير بني وطنهم فقال الراهب

— متى ترحل السيدة وحشمها

— صبيحة غدٍ فانني ارغب في الوصول بلا بطوء

— نِعمَ الفكر

— قد حان وقت النوم وقبل ان استمح بالذهاب يجب عليَّ ان اشكر حسن اقتبالكما لنا والتفاتكما الينا راجية بانكما لا ترفضان هذه الاغاثة لفقرآء هذه القرية

ودفعت الى الراهب كيسًا مفعمًا ذهبًا. ثم سارت فانطرحت على سريرها واخذت تفكر بالحادث العظيم الذي نقلها من ڤينيسيا جنة ايطاليا الى تلك القفار الشاسعة .

وما ابعدها عن ڤينيسيا الأحصار الفرنسويين لها واحداقهم بها كالطوق بالجيد لتدميرها والاستيلآء عليها . وقد خرج بأمرانت زوجها عن طريق البريتا ثم ارسلها الى ميلانو ثم الى رومية للاستئمان عليها ورجع هو معرّضًا بنفسه للاخطار ذبًّا[1] عن بلاده ومحاماة عن ابنآء وطنه . وفي طريقها وصلتها رسالة من المركيزة بريسكا تستدعيها الى بليانينو لقضآء مهام جليلة .

ولما اصبح الصباح افاقت الكونتة اختها وكل حشمها واقبلوا الى البحيرة فساربهم الزورق تتلاعب حواليهم نسمات لطيفة معطرة الاذيال بما يفتح الصدور ويملأ القلوب فقالت امرانت

— ياعزيزتي اورور تذكرني هذه المناظر البديعة تريانون وڤيرساي ولولا حزني وانشغال بالي لسحت بالفكر الى تلك البلاد وجددت ما كان من الملاعب والملاهي وسرّيت كل همومي . . . اليس فكري فكرك

— انا اذكر تريانون حيث رأيته وڤرساي حيثما احببته وڤينيسيا حيثما فقدته وفقدت الراحة والعافية

— ياويلاه . . ما العمل لتسلوه ولو دقيقة واحدة . . . اللهم كيف تقاص البريئ بجريرة غيره . . . .

---

١ دفاعًا

القسم الثالث

بليانينو

(١)

وعمّ الصمت في الزورق حتى قضي النهار على الشقيقتين دون ان تفوه احداهما بكلمة . وكلاهما مستغرقتان في افكار مختلفة عن موضوع واحد . وعند المساء نحو غروب الشمس صرخ ستيفانو

— بليانينو . بليانينو الحمد لله

وكانت المركيزة بريسكا تنتظر زائرتيها بفروغ صبر . فلما وصلتا استقبلتهما بكل ترحاب واوصتهما ان يصعدا وحشمها الى البناء بكل اوان فربط الزورق ومجدوا الى القصر يتكالمون بصوت منخفض ثم دخلت السيدات الى قاعة الاستراحة فقالت المركيزة

— اعذراني يا عزيزتيّ هذه اماكن لا تليق بشأنكما لاشتداد البرد فيها شتاء والحمد لله نحن بفصل الصيف فضلاً عن ان في هذه الاماكن تكونان براحة وامان اذ لا احد يشعر بوجودكما فيها . فان غرابة حي واخباره تبعد الناس عن بليانينو

— ولعلّ المركيز عمك لا يرضى باقامتنا هنا

— لا خوف عليكما من هذا القبيل انه ساكن في الجنب الاخر الاعلى فلا ياتي قط الى هنا ولا احد يستطيع الذهاب اليه وهذا ما يتم مقاصدنا

وكانت المركيزة قد تغيرت تغيرًا عظيماً كانها خلقت خلقة ثانية . فقالت

— لو نظرتني خارجًا لما عرفتني الا يا عزيزتي امرانت

— قد حصل لك داء عضال على ما يظهر

— احببتُ وهذا سبب اعتلالي وخذي من تغيّر وجهي دليلاً على تغير قلبي . . .ان هذا الرجل لشيطانٌ رجيم

— لو اردتِ لصيرته من اكبر الملائكة

— لا تفاتحيني بحديث يعسر عليّ سمعهُ . . . .واختك المسكينة . . . . هي ايضًا . . . .

فاومت اليها امرانت بالسكوت امام اورور لعلمها بما اختها عليهِ من بغض المركيزة وحدة اشتعال العواطف فسرعة العطب. وقالت

— اين تقدران تستريح اورور

— قد اعددت لها حجرةً اصلحتها بقدر ما مكنني الحال في هذه الاماكن القفرة واظن بانها تجد بها الراحة الكافية

فادخلت اورور الى غرفتها وسارت المركيزة وامرانت بعد ان امرتا الخدم بالرقاد فقالت المركيزة

— أأنتِ شجاعة ياعزيزتي الكونتة

— نعم لماذا

— لنصعد الى سطح الكنيسة نستنشق طيب النسيم ونشهد المناظرالبديعة فان اناسًا يخشون التنزه ليلاً لما ورد من اخبار نساك بلهيانينو

— هذا حديث خرافة فلنذهب

— صدقتِ ياعزيزتي فانا لا اخافهم رغمًا عن مواصلتي لقاتليهم وعن اعتقادات حتى الذي لا يأتي هذا المكان ولو قدم لهُ ملك الارض

و بعد هنيهة وصلتا الى سطح النساك فهال امرانت منظره الغريب الرهيب لظهور خيالات قبب الاجراس وخيالات الاصنام في ضوء القمر مجازيا ً وصور وهمية يزيد غرابتها تلاصق امواج البحيرة بها ولمعان الخضرة حواليها . فقالت المركيزة

— أُخبرنا ان الفرنسيين على قرب منا وانهم عما قليل يغشون وجه هذه

النواحي

ـــ لا غرو ... فقد سمعنا هذا النهار دويّ بنادقهم ومدافعهم

ـــ حسناً صنعتِ بان اتيتِ تختلين بهذا القفر فانهم لا يقربون الى هنا واذا اتوا فلاخذ استحكامات حربية فلا يضرون بنا بل يدافعون عنا اذا مست الحاجة. لاسيا وان قواد الفرنسيين وجنودهم من اكرم الناس والطفهم

ـــ انهم ابطال كرام يابون اللوم فلا تهتمي

ـــ ايتبعك الموسيو دندولو

ـــ على ما اظن فانني عند ما تناولت كتابك ارسلت احد الخدم يخبره بانني انتظره هنا. ولا راحة لي من قبيله حتى يعود

ـــ انك تحبينه وهو يحبكِ... بارك الله اتحادكما كللهُ الحب والحنوّ

ـــ قد دعوتني ياحضرة المركيزة فاتيت واسترسلت[1] الى كتابك بدون تحذرٍ من عاقبة امل ان اطلع على هذه المهمة التي نوهتِ لي عنها ونحن الان وحدنا لا رقيب لنا فاخبريني ما في نفسك

ـــ قد أُخلف ظني فلا اخبرك شيئاً. اراكِ منعطفة على ارمان. هنأكِ الله به... اني رددتك فيما مضى عن قصدك فاعفي عني عفي عنك

ولم تتلفظ المركيزة بهذا الكلام الأخيرة منها وحسناً فتبسمت امرانت تسم ازدراء ورفقٍ واطبقت يديها على يد المركيزة وقالت

ـــ ارثي لكِ ياعزيزتي قد عماك الحب فلا تبصرين الآ من وراء عواطف قلبك اكدت لكِ ان روابطي مع ارمان ليست الأدبيّة صرفة فلا تتخذيني ضرة لك روابطي ان ارمان محرم عليّ دون سائر الناس

ـــ قد شجعتني جودتك وحسن نياتك فانا افتح لك قلبي واطلعك على خفاياه فتحكمين عليّ وتسامحينني اذا لم تعذريني اني لطالما تحملت الاوجاع ولطالما كفرت عن ذنوبي

---

[1] استامنت

— تكلمي باعزيزتي فانني اعدك بالاصغا والصفا .

فجلسنا عند ذلك . ونظرها طامح على البحيرة وقد نشر الريح على مائها زردًا فمحت المركبزة عبراتها

(٢)

ــ قبل الشروع ياسيدتي الكونتة أتؤمنين ان حبًا حقيقيًا يقدر على تغيير طبيعة امرأة

— إيمانًا صحيحًا

— أو تؤمنين ان حبًا كهذا يكون بديهة وان قوته في بدء الامر قوته في النهاية

— في بعض اشخاص

— هل تعدينني منهم

— نعم

— اذن تفهمين مقالتي . دعوتك الى هنا لاجلي وليس لاجلكِ لاني اشعر باضطرار شديد ان اواجهكِ فتمديني بنصائح واقاويل تقويني على ابعاد ذكره . ندمي وافكاري واميالي تقتلني كل ساعة

وتلألأ الدمع في عينيها .

— انني ارثي لحالك

ــ ترثين لحالي فتمدين يد الرأفة الى شقائي وهذا الشقآء يوقفكِ على الخطر المحيط بكِ خطر دائم صعب الابعاد والمقاربة . قد ضرب هذا الرجل بينه و بين الفضيلة حجابًا فاقسم ان يعدمك ويهلك بعلكِ واختكِ وهو يبغضك من فرط حبه كما قلتهُ لكِ في كتابي

ــ لااجهل شيئًا من هذا كله

— وقد بذل لاتمام عزمه صبرًا طال حتى ظننته قد سلاكِ . اما انا فاحتملني

غير انه لم يحبني وهو اقدر مني لاطّلاعه على ماضي ذنوبي فلا اخطو خطوة نحو الطريق المستقيم الا نكّبني[1] عنها بنظرة واحدة

— هذا عذاب لا يطاق

— جرني وراءه اينما شاء ولم اقدر على ممانعته وزاد شقآئي خوفي بان يشعر حبي بعلاقاتنا فيقتلني لا محالة. والحمد لله انه لم يدر بها . اما بعلي فعارف كل شيء وهو قد هجرني بعد حادثة نابولي ولم يعد يهتم بسيرتي غير مفتكر ان اعماله يسود صفحات عائلته ... وتوارى ذات يوم ارمان فجاءة وكان قد كسب مبالغ لاتحصى مع رفيقه كرنوفا بعد الفرار من الآبار فعاد الى فينيسيا واقام بها بضع سنين مختبئًا لا احد يدري بمحله وهناك فرق ماله على اسافل الناس فاستجلبهم اليه وجعلهم آلة له يتم بها مقاصده المعيبة . وتمكن بعد من الدخول الى البكم متخفيًا بصفة رقيب فاستجلب تعطف الكونت بعلك وانيطت به المحافظة على اورور . وكان قد اقام له حلفآء في ظاهر الدار وكمنا متفرقين في كل الجهات حتى الى مدينة بادو حيث كانت تنتظره عجلة سفر يذهب بها الى جينوفا ومن هناك يركب البحر الى حيثما شاء . وقد اتم كل مقصده على غاية من الترتيب فهرب باورور غير ان الخيانة اخذت بعض رقبائه فلم يخط مئة خطوة الا ردت البكم اورور وطرح هو في السجن مكبلاً بالاغلال والعار . تعرفين جيدًا اي يد انقذته وقد سمعتِ الشتائم والمواعيد التي خرجت من فمه عندما تحولت الى عواطف اجدر بكرم الرجال . فتركك ونار الغضب تتأجج في قلبه وسار الى نابولي حيث كنتُ طريحة الفراش من بعاده . وقد اطلعني فيما بعد على مقاصده فهو عازم على قتل بعلك واغتيال شقيقتك واخذ ما لها عندما تسنح له الفرصة ويترقّب فرصة الليل والنهار

— هذا امر فظيع

— وقد قال لي اني عدت بالخيبة فلا اكل عن المهاجمة والمقاحمة حتى

---

[1] احادني

ارى يوماً هذه الامرأة الحقيرة باخعة على قدمي واهية تحت ثقل العار تطلب العفو لها ولشقيقتها . وانا واثق بالظفر . انها تذوق اذ ذاك ما ذقته انا من الذل والعذاب فيزداد سروري وانسى ماضي شقائي »

— ياله من لئيم كافر بالنعمة

— واي لئيم واي كافر بالنعمة في جنب امرأة خاطرت بنفسها وشرفها لخلاصه . كأن الشيطان قد اعاره الحسن لتكثر فرائسه وقد لاح لي مراراً انه هو الشيطان . وما علينا : . . . « وبارحنا نابولي واخذنا نتجول في انحاء فرنسا عائشين عيشة واحدة الى ان لحق بنا كرنوفا فافسد ما بقي في قلب ارمان من العواطف الحسنة . وكانت الثورة قد انتشرت في فرنسا فانخرط ارمان بسلكها وخدم اليعقوبيين في باريس خدمةً عظيمةً رفعت قدره بينهم وأعظمت شأنه فصار لم عضواً يعول عليه لإيقاع الرعب والخوف وتلطخ بالدم الملوكي بعدما غمره الملك والملكة باحسانها لا ضمير يبكته ولا شرف يردعه . ومع هذا لزمته دائماً وكانت محبتي له ابداً بازدياد . وقد نظرت سوء افعاله فلم اجرأ على تأنيبه الاَّ مرة واحدة اذاقني من بعدها مرّ الاهانة فذكرني سابق خدمي الزرّية لجمهورّية فينيسيا ونسي بانني ركبت الاهوال لاجل نجاته وخدعت الحكومة واستخدمت ما سلم اليَّ من الاسرار . وانك تعلمين جيداً ما جرى بعد ياعزيزتي الكونتة ولولا كرم بعلك وفرط فضلك لما قدرت قط على النجاة .

« وكان قد مضي بضع اسابيع ولم يحدثني عنك فدخل ذات ليلة والفرح ملء قلبه واخبرني بانه قد ضبط مالكم واجبركم على المهاجرة فامسيتم تحت سلطته المطلقة

— نعم فقدنا كل ثروتنا

— وكانت الشتائم والتهديدات تتخلل كلامه فاستدللت من كلماته المبهمة واقاويله الخفية بانه لم يزل يريد اهلاككم فسآني ذلك واضطرب بالي

عليكِ وعلى بعلكِ وعلى بدا موازيل دي سانت مام ووددت لو اكتب اليك
لانقذكم من التهلكة فحال بيني وبين مرامي .. ولم يعد ارمان يتلفظ باسمك
ولا بكلام يعنيكِ فظننت بانهُ قد نسي وعيده غير انهُ شيطان لا ينسى . . .
وبعد قليل من الايام توارى عن عيني ولم اعد اراه وقد ترك لي كتاباً اوعيتهُ
لتكرار قراءتهِ وهذا نصه

« لعمركِ ليس فوق الارض باقٍ ولا مما قضاهُ الله واقٍ »

« وقد حكم عليكِ بفارقتي لا بعد عنكِ الذل فلا امل بعد باللقآ . »
« كرهتكِ نفسي فعودي الى بلادكِ وانا ان شئتُ اتحفك باخباري . ثم »
« احضكِ على الاحتجاب والتزهد فالفرار من العالم الغرار وخصوصاً من »
« طواف حكومتك لانهم يبتغون الصبر لكِ ولي . قد اصاب سهمي واثاً رت[1] »
« لنفسي فلا يكن لكِ بال عليَّ . . . . اشتهي لكِ كل سعادة وخير بشرط »
« ان لا اشاهد سعدك ولا اساعد عليه » « ارمان »

ما اعظم حب القلب الذي يقوى على كل هذه التجارب . قرأت كتابهُ
الليل والنهار وانا اقلب معناه وافسره بافكار بعيدةٍ ليفتح لي باباً للأمل .
واذ لم اقف على مبتغاي هجرت مقامي وسرت اسعى وراءه فلا اراه حتى تلاشت
قواي - وفي اثنا ذلك وصلني كتاب من حمي يعدني بالحب والاعزاز
ويدعوني اليهِ فانثنيت ونزلت رحباً تحت حمايتهِ . ولا ازال الى الان
اتصور انني قريبة من ارمان انفذ اوامرهُ وهذا التصور اضناني . هذه قصتي
يا عزيزتي الكونتة وهذه هي الحقيقة بتمامها . لم اخفِ عليكِ حتى الحسد
والندم الذي شعرت بها بعدما دعوتكِ . قد نبهتكِ الى الخطر ولو بقيتُ
عنده لما نبهتكِ فاحكمي اذن واغفري لي حسدي لانني لست انا قائدة نفسي
بل شهواتي القويَّة المائلة . . . . انهُ واأسفاه لا يفتكر بي ولا يبتغي مواجهتي
فاستدعيتكِ الى هنا مصيدة له لعليَّ اراه بعد . . . . ما احقرني بين النسآ

---

١ اخذت بثاري

— حقيرة سافلة . لانك بعهاك وحبك الفاحش الزري القبيح بالخطر امرأتين بريئتين

— المعذرة المعذرة

— اعذركِ . . . اعذرك وارثي لتعاستك

فاستلت المركيزة . ولبثتا هنيهة تفكران بالهاوية التي قادتهما اليها قوة هذا الانسان الغريب ثم قالت الكونتة

— هذا ما قدّر لي ياحضرة المركيزة كانت المرحومة والدتي تحذرنا من ارمان كوجي ان نزل عليها وقد قالت لنا مرةً « يا ابنتيّ احاد الله هذا الرجل عن طريقكما فقد يكون شقوة لكما »

— انه روح الشر ارسل الى الارض لهلاك من يتعلق بحبه ولاضطهاد النساء النقيات . . . من اتى به الى العالم وممن اتاه هذا الحسن الغريب وهذا الاقتدار وهذه الشجاعة . .

وعندها تلألأ نور القمر على وجه المركيزة الاصفر فزاده اصفراراً وتقطبا وجف الهواء فتخيل لها انها تسمع قرع احراس علوية فارتعدت

— لعلّ النساك قد ابتدأوا زياحهم . . .

ونظرت يميناً وشمالاً فوقع بصرها على الاصنام وقد كساها نور القمر وهجاً زاد هولها فالتفتت الى رفيقتها وهي تنتفض من الرعب وقالت

— تسلط عليّ الهول ياعزيزتي امرانت وشعرت بقدوم خطر يتهددني . انني خائفة على حياتي من ضربة تذهب بها وقد تغيّرت في بصري الطبيعة فاراها سوداء حالكة . . . انتظر شيئاً ولا اعلم ما هو وعلى كل حال لا انتظر السعادة احببت ارمان وحبه قاتلي ولكنني لا اخاف الموت بل اتلقاه بثبات قلب وقدم فاموت ولا آسف على الحياة

وكان القمر قد غاب والظلام قد انتشر في تلك الارجاء فعادتا الى المقرّ وسمعتا بعد ان أغلق الباب صوت صفارةٍ قاسياً خارج الدار

(٢)

وفي صبيحة اليوم الثاني افاقت اورور من رقادها واحدقت حواليها فبانت لها مناظر بلبيانينو البديعة وصفاء جوّها وجبالها الشامخة الخضرآء واستنشقت هواها النقي فعادت اليها حركات الشباب وتقدمت الى الشرفة وهي تضاهي بملابسها البيضآء حسن النهار وضوّه اذ تبين لها عن بعد زورق يمخر كالسهم ماء البحيرة وفيه رجلان فتنهدت وقالت

— لاشك اناس مطرودون مثلنا

ثم اخذت تقلب بصرها في البيت وتعجب من كبر بنائه . . وحالت منها نظرة الى السطح فرأت شيخًا ابيض الذقن محدقًا بها بتميز حسن ملابسها وهو يشير لها بالصعود اليه فراعها بادىء بدء منظر رجل غريب لم تره عمرها وهرولت الى الداخل فدعت خادمتها يلبسها اثوابها وعزمت على الخروج فاعترضتها احدى الخادمات

— مهلاً ياسيدتي لم تستفق بعد حضرة الكونتة

— وما يهمني

— قد نهتنا عن ان ندعكِ تخرجين ان لم تكن هي معكِ

— اذن انا اسيرة هنا

— لم تعلمنا حضرتها بشيء من هذا

فكفّت اورور عن الاسئلة ولم تحاول الاجبار لعلمها ما للخادمات من الامانة والاستقامة بحق الكونت والكونتة لا سيما وقد انخباهنّ بعد الحادثة الاخيرة من اصدق حشمها . ثم عادت الى الشرفة تراقب الزورق والشيخ قائم مكانه لا يحوّل عنها ناظره . و بعد هنيهةٍ اقبلت المركيزة خفيةً ووقفت بحضرتها

— صبحك الله بخير ياعزيزتي اورور ان شفيقتك بانتظارك

فردت عليها سلامها بازدرآء شعرت به المركيزة

— كيف تبغضين من يقاسمك الاحزان . كلتانا نألم لاجله او ليس ذلك

بكافي لتفقد اتحاد اقارب

— لا افهم ما تقولين ياحضرة المركيزة

وتقدمت الى الباب . وكانت امرانت تنتظرها على المائدة فاكلن سوية

و بعد الغذاء سمعن وقع ارجل ثقيلة في الحجرة المجاورة واذا بشيخ طاعن في السن قد دخل عليهنّ بغير اعلام فهبّت المركيزة وقالت

— هذا حمي

فوقفت امرانت واختها للحال وانحنى الشيخ قليلاً للسلام فخاطب المركيزة

— ايسوغ لي يافيور بنا ان اعلم من الزائرون الكرام

— الكونتة دندولو والمركيزة دي سانت مام شريفتان فرنسويتان قاطنتان فينيسيا . وقد تكلمت لك عنها مرارًا ياسيدي

— قد اتتا الى هنا . . .

— اجابة لدعوتي

— يجب ان اثبت دعوتكِ والاّ لا يلقيان الاكرام اللائق بسموها

فاحتذرت امرانت للجواب

— ارى ياحضرة المركيز ان الرحيل اسهل علينا

— لا اظن ياحضرة السيدة

— ولماذا

— لان الفرنسويين محيطون بنا من كل جهة وعما قليل يغشون كل ايطاليا فلا تجدان ملجاء آمن واوقى

— ومن اعلمك بذلك ياسيدي

— عيناي واذناي . قد سمعت دويّ بنادق قريبًا ونظرت من مرصدي مراكبهم مشحونة بالعساكر والذخائر . أأنتِ مهاجرة ياحضرة الكونتة

— كلاّ ياسيدي انني مستوطنة فينيسيا من قبل الثورة

— وحضرة الكونت دندولو قد رافقكِ لا شك

— فضل ان يبقى في خطتهِ عرضةً للاخطار من ان يطلب الخلاص. ولا غرو فان كبيرًا من كبار جمهوريتنا الموقرة لا يعول على النجاة الّا بعد ان ينفذ ما وسعهُ جهدهُ لابعاد الخطر عنها

— ان اعتقادك بالموسيو دندولو بعلك لغايةٍ في الشرف والرفعة وقد كان اولى لك ان لا تفارقيه بل تبقي قربهُ تقويهِ وتشجعينهُ اذا عظم الخطب من ان تدعيه وحدهُ يجاهد ولا مساعد... ولكن ارى بانني تطوحت ءالا يعنيني فالمعذرة ان كان ساءك كلامي غير انني شيخ وللشيوخ حق نصح الشبان...

وكان الشيخ حسن التقاطيع ابيض اللحية منسدل الشعر كبير القامة معتدل القوام قوي الصوت فصيح العبارة مثبت الكلام قاطع الحجة اهلاً للوقار والتجلّه. فلم يمس امرانت كلامهُ بل طأطأت راسها تشكرًا وقدمت لهُ شقيقتها

— هاك عذري وعلتي شقيقتي تحت حراستي وليس لها معين ولا محام غيري تعتمد عليهِ. صحتها تستلزم مداومة الاعتنآء وانا وعدت والديَّ وهما على فراش الموت ان اقوم لها مقامها فلا اهملها ابدًا. انت الى فينيسيا والخطر محيط بها فانتشلتها من مخاليهِ وجئت ساعية لها بالراحة وفي ذلك مسرة لبعلي وهو الذي حضنا على الرحيل

— فهمت الان واستحسنت

فتبسمت اورور تبسم احتقار لم يلمحهُ المركيز وقالت المركيزة

— ان الكونتة صالحة شريفة يا سيدي

— عندي انها اصلح النسآء وكفى انها صديقتك... آمل بانها تقيم عندنا ليس في اماكن حقيرة كهذه. بل في الطبق الاعلى لتتمتع وشقيقتها بمنظر البحيرة وبجودة الهوآء فتعلم حينئذٍ ما هي بليانينو

— انني اقبل تعطفك يا سيدي وابقى هنا الى ان يتبعنا الموسيو دندولو

—لعمري ان اسم دندولو جميل جميل . اسرة مباركة. نسآؤها شريفات طاهرات ورجالها ايبون اشداء . قد رضعوا لبان الشرف والشهامة والنبل فاتخذوها دينًا لهم وما احد اخلّ بها

ودعا بخدمه وامرهم باعداد غرفتين في الطبق الاعلى للضيفتين ثم مضى بعد ان اوصى الّا يزعجنه في خلوته .

وفي المساء نظرن ومن على السطح الزورق الذي نظرنة اورور متجهًا نحو بليانينو يقذفه الرجلان بسرعة عجيبة فنزلت المركيزة الى اسفل الدرج وفتحت بابًا حديديًا يتصل منه الى الجورة

وقارب الزورق الشاطيء فقفز احد الرجلين الى الخارج وتقدم فسلم على المركيزة

— من تريد

— حضرة المركيز ربسكا

— المركيزام المركيزة

— لا ياسيدتي بل المركيز

— ومن قبيل من

— من قبيل احد اصدقائه في ميلانو وقد امرني بان لا اشافه الاّ ه

فانحنت المركيزة وصعدت وتبعها الرسول فقاده احد الخدم الى الجانب الاعلى وهي تتبعه بالنظر فاكرة بمقصده الى ان توارى عن عينيها . وكانت الشمس نازعة الى المغيب فذهبت وضيفتيها الى قاعة الاكل وقد اعلمهنّ المركيز انه لا يحضر فقالت الكونتة

— ارى ان حماك قد نسينا

— انه غريب عجيب الطبع . قليل الانس نافر كالوحش تتعذر حتى عليّ مشاهدته وهو يبغضني وقد سعى مرارًا بقتلي فغرّ في فيهما ماركو ساتي بمال عظيم ليقتلني فابى لعلمه بتعلقي مع الطواف

— كيف اذن تأ منين له وتقيمين في الوحدة معهُ

— اقيم معهُ لعلمي بما قد فطر عليهِ من المحافظة على الشرف وصيانتهِ اسمهِ وهو يفترض على نفسهِ المدافعة عمن يدخل تحت ظلهِ ولو عدوهِ فانا آمنة لا خوف عليَّ

وما اتمت كلامها الاَّ حضر احد خدم المركيز وقال

— قد وصل ياسيدتي الى حضرة المركيز كتاب يودُّ اطلاعكِ عليهِ

— انني انتظره هنا

— بل يسالكِ ان تاتي الى مخدعه الساعة العاشرة وحدك

— انني اذهب

وقلقت المركيزة كانهُ قد طرأ عليها خبر سوءٍ واضطرب ظاهرها بما اعرب عن اضطراب داخلها فقالت

— هذه نكبة لاشك . وصلة كتاب . . . كتاب . . . ويريد ان يطلعني عليه . . ومِمن هذا الكتاب لعلهُ من ارمان وقد غلط الرسول فسلمهُ اليهِ . اللهم ردَّ عني الشرَّ فاني اشعر بشؤم العاقبة . . . . هل ذهب الزورق ياعزيزتي امرانت

— نعم من برهة وجيزة

— وكيف اتجه

— نحو جزيرة جيبلان

— وبعد

— وبعد لم نعد نراه . اظن بان الرسول اتى برسالة الى حميك من احد اصدقاه ولااخال هذه الرسالة تجرى الى غير مسائل اهلية بهم المركيز اطلاعك عليها . كل هذا سهل لا ارى فيهما يضجركِ ويخيفكِ .

ولم تكن فيوريتا تسمع الاَّ صوت قلبها الخفيّ فقالت

— ساعديني يا امرانت ودافعي عني انا المسكينة التعيسة . وبلغيهِ بعد

حياتي انني هلكت شهيدة حبه فلا يلعن ذكري

— بددي هذه الاوهام المحزنة فلا باس عليك ياعزيزتي فيورينا

— انني اموت وفي قلبي من المرارة ما لا يطاق . سامحيني ياحضرة الكونتة سامحيني فقد خلقك الله تعزية للبائسين . . . والان حان الوقت للالقاء حبي . استودعك الله لعل وداعنا هذا اخر وداع . اتمنى لك ليلة سعيدة ياعزيزتي اورور

وانطرحت تقبل عنقيها والدمع يتهافت من عينيها تهافت المطر ثم تركتها وسارت .

---

(٤)

وكان مسكن المركيز منفصلاً عن رواق الدار بسلم يصعد به اليه فوقفت فيورينا ونظرت قليلاً من الطاقة المجاورة . والقمر مجلل بانواره الساطعة الفضية كل تلك الانحاء فرأت عن بعد جبال بليبانينو تسطع عليها مشاعل عربية لم ترتب بانها مشاعل طليعة من الفرنسويين . والبحيرة مغطاة بمراكب مزدهرة بالانوار تحمل جنود العدو الظافرة فارتعدت فرائصها وزاد خوفها سكينة الليل التامة . ثم قطعت الرواق وصعدت السلم باضطراب كلي الى ان وصلت . وكان المركيز ينتظرها خارجاً فادخلها واقفل بعدها الباب اتم الاقفال ورمى بالمفتاح في مجمرة محرقة

وكان من عادة المركيز ان يكثر من المشاعل والشموع امام تماثيل اجداده حباً بهم واجلالاً لكبيرهم قاتل الرهبان بما يفسد هواء غرفته لاشتداد الحر وتكاثف الابخرة بها . فلم تطق فيورينا الوقوف وقد افزعها فعل حميها فقالت

— يجب ياابي ان يكون ما تريد اطلاعي عليه سرياً جدا حتى تتخذ هذه التحذرات

— انه سري جداً وسترين ذلك عن قريب

واحدق بها احداق من يتعرف القلوب ثم قال

— ستحدث بهام اهلية امام اجدادنا الناظرين الينا

— يستحيل عليّ التكلم والاصغاء في هذه الغرفة فانا اختنق من ثقل الهواء

— تتعودين عليه بعد قليل مثلي . . . والان اسمحي لي ان اراجع ذكرى الايام الخالية منذ تشرفت بان اراكِ كنةً لي . انك تتذكرينها لا شك

— نعم اتذكرها

— وعليه تتذكرين ما دار بيننا من الحديث ثاني يوم اقترانك

— تماماً

— ماذا تشرفتُ فقلت لك

— قلتَ لي بان شرف اسمكَ خير من كنوز الارض ومن الحياة وقد سلمتنيه فعليّ بصيانته والاّ حاسبتني وغسلت العار بدمي

— وماذا اجبتني

— اجبتك بانني اقبل العقاب اذا استحققته وانه يستحيل عليّ ولو تلطخت بكل المفاسد ان اضاهي جدكم بريسكابا فعلة من المنكر والعار كالسرقة والقتل والفحشاء وغيرها من افعال تقشعر عند سماعها الاذان

— ارى بانك ما نسيتِ شيئاً وبعد

— وبعد هجرت ميلانو وتركتك في بلبيانينو. وقد اقسمتَ بانك لا ترحل منها بعد ان اوصيت نعلي بالمحافظة على شرف اسمك وبالسهر عليّ تيقظاً من عثرة الشباب لان بتطرفي ما يذهب بجمالي

— قد وعيتِ كل شيء . ومن ثم سار بك بعلكِ وبقيتُ وحدي اتمم اعمالي مستنداً الى وعده ووعدك . . . فكيف قمتما بالوعد . . .

فتنهفرت المركيزة ولم تكن بانتظار هذا السوال ثم قالت وقد فرغ صبرها

— اين حدك من هذه المحن

ـ اصغي انكِ الان بحضرة حكم يجب ان تؤدي له عن كل شي حساباً .
يالك من حمقا عميا قد ارتبطت بمواعيد بستحيل وفاؤها مع ما انت عليه
من الذنوب والقباحة والان تسألينني اين حدي من هذه المحن وانت تسردين
على مسمعي حديثنا وارتباطاتنا الاهلية واطرأ قليلا بالارض ثم اخذ رقعة من
جيبه وقال

— هوذا ما ينفعكِ ويرفع البرقع عن عينيكِ . قد تملصت الى الان
من يدي لبعدكِ عني ولعدم اهتمام بعلكِ بردعكِ حفظاً لشرفنا والان لا
تتملصين . قد وصلتني البارح هذه الرسالة من احد اصدقائي الكونت
بيروشي تنبئني عن الاخبار الشائعة عليك من تعشقك احد الشبان
وسعيك وراءه . . . خذي واقرأي فيتبين لك اي رجل تحبين وما هي
حالتك .

فاخفت المركيزة رعبها واضطرابها وتناولت الرسالة وتلت

« عزيزي المركيز »

قد توقفت عن مجاوبتك لعلمي بان نبأً كالذي سألتني من شأنه
تلويعك وادماء قلبك الشريف غير انك اقتضيته فاطعت على الرغم مني
اننا معارف ما يزيد عن سبعين سنة وكلانا معتصمان بمبادئ شرف لا
يزعزعها الزمان . ان ما افعله لك الان تفعله انت اذا لا سمح الله أصبت
بحالة كهذه فاعتمد ياعزيزي على الصبر لان الكلم بليغ والمصيبة عظيمة . ان
اسمك الذي تعبده صار عرضة الاقذار والمعايب قد دنسته امرأة ذليلة
بذيئة ومحنة خيانة ابنك لازدرائه بافعال قرينته . ما اشأمها امرأة
لطخت بعلها بالعار وحثت عشاقها على قتله وهو راقد متغاض وقد بحثت
البحث المدقق اجابة لسؤالك فاتيت فينيسيا واوصلتني الاقدار الى عاشقها
الذي عمد على قتل بعلها وقاسمها الشرور والمكر وهو اوقفني على كل شيء بلا

تكلف ولا تعب »

ــ واخبر الكونت بيروشى كل حوادث نابولي وروميه وفينيسيا واحتقار ارمان لها واتم هكذا

« ان ارمان لم يحبها قط وقد قال لي انه يحتقرها »

فتنهدت المركيزة على نصيبها وهي تردد هذه العبارة « انه يحتقرني ولا يحبني » ثم اتمت

« لم يحبها قط بل كان يستخدمها لقضا حاجاته . كيف امرأة مثلها كريمة الاصل تهجر كل مالها وتقتني رجلاً كهذا مجهول الاصل بل لا اصل له يعيش بالخداع والسلب ان ذلك لعمري يظهر من المستحيل . »

« ودامت هذه الحالة الرزية حالتها زمانا طويلاً وهو يزجرها بكلام يدل على عدم تعلقه بها الى ان فرغ « صبره ففر هاربًا منها ولم تره . »

« هذا ما وقفت عليه ياعزيزي المركيز من اخبار فيوريا كتبتك صبرك الله على الاحتمال وادامك لصديقك الوفي

« بيروشي »

ولما فرغت من قرايتها مسحت دموعها ورمت بالرسالة في الارض فقال المركيز

ــ ماتقولين عن هذه الرسالة ياحضرة المركيزة

ــ تستحق اللعن

ــ فهي اذن كاذبة غير صحيحة

ــ بل صحيحة كل الصحة

ــ او تقرين بذلك

ــ اقر وافتخر باقراري لان حبًا كحبي في طبع نظير طبعي هو معًا اعظم عقاب يلحق المرء واعظم اصلاح يرتجيه

ــ اتجسرين على مثل هذا الكلام بحضرتي انا ديانك . . . انك

تستحقين امرّ العذاب

ـ ما يهمني حكمك وما يفعل بي شمك والموت الذي تتوعدني به اعلم واود لو يسمعني العالم باسره . . انني لا ارتجي سواه ولا يعجبني الا ما احب ما يحب وارذل ما يرذل لا يفرحني الا فرحه ولا يحزنني الا حزنه . . السماء رضاه وجهنم رجزه . . . وقد اماتتني هذه الرسالة التي نصها هو على الكاتب قبل ان تميتني يدك

— ياعديمة الرشاد لا تجدفي فالموت قريب منك

ـ لا يهمني الموت . . . فانا اكرس له الان ما بقي من حياتي

— كرّسي ياشقيقة مابقي من حياتك الى الله خالقك . . . قد استحققت الموت وخضعت للعقاب فالعقاب تكبدينه في هذه الساعة

ـ واطرأ بالارض هنيهة ثم وقف وتناول بصفاء من جراره غدارتين فذخرها وقال

— قد قربت ساعتك يابذيئة فاركعي واستغفري الله

ـ لا اخاف الموت ياحضرة المركيز انه يريحني من عذابي لماذا اعيش وهو لم يحبني قط

غيران التعلق بالحياة وامل رؤية ارمان اخذا من قلبها كل مأخذ فتقهقرت قليلاً ثم استنهضت ما بقي بها من النشاط واخذت تدور حول الغرفة تقرع الجدران والنوافذ وتطلب الاغاثة باصوات تمزق الاحشاء حزناً وكآبة والمركيز ساع وراءها بقدم مهل مصوباً عليها غدارته وآمرًا لها بالتوبة الى الله حتى قرعت الساعة الحادية بعد نصف الليل فاطلق النار ووقعت المسكينة تختلج بدمها وهو المنتقم قائم امامها ينظر نزعها فرحاً برأى دمها وقلبه ساكن لا شيء يخيفه كأنه قطعة جلمود

— قد اخذنا بثارنا والحمد لله ورفع عنا العار . لم يبق علي الآن اقلّ من العمل على الجلاد

وسمع جلبة ارجل في الخارج والكونتة تصرخ

« فيوربنا فيوربنا . . . ياحضرة المركيز افتح لنا » ثم صوت مطارق على الباب تزعزعه من كل اطرافه . فادخل الغدارة الثانية في احدى اذنيه واورى النار .

ودخلت امرانت وخدمها بعد ان قلع الباب فراوا الكونت مهشم الراس امام منضدته والمركيزة طريحة في الارض وبها قليل من الرمق

---

(٥)

وكانت الكونتة قد اختلت في غرفتها بعد ذهاب فيوربنا فاخذت الافكار تجاذب قلبها وتمثل لها الصعوبات العديدة التي وقعت فيها من قبل اختها وارمان وزادها قلقاً بطوء المركيزة عن الرجوع فخافت ان تكون قد وقعت بما استدركته من الخطر قبل صعودها فخفق قلبها وفرغ صبرها وكادت ان تصعد الى الطبق الاعلى لتنظر ما الامر لولا خوفها من المركيز ان يقابلها بغضب وازدراء . فبقيت تتردد في ذلك الى ان سمعت صراخ المركيز والصجيج الهائل الذي احدثه . فطارت الى الطبق الاعلى . اذ سمعت اطلاق الرصاص ثم سقطة جسم على الارض . وللحال نادت بخدمها وامرت باقتلاع الباب او تكسيره فاعملت المطارق . وعندها سمعت صعقة ثانية فتشقق الباب ودخل جميع من كان خارجاً .

وكانت هيئة الغرفة مفزعة هائلة لتلألؤ الانوار فيها امام رسوم اجداد المركيز واولئك الشيوخ الاشداء الذين كانت مهابتهم باقية حتى على صورهم . وسيلان الدم كانهر من راس المركيز وقلب المركيزة مبطوحين على الارض بلا حراك .

ودنت امرانت من المركيزة وبها اشارة حياة فاحتضنتها وقالت

— باسم الله . . . لم تمت بعد . . . الا يوجد اطباء في هذه الجهات ..

فاجاب احد الخدم

— نعم ياسيدتي في ترامبزو . . . لكن في هذه الساعة . . . والبحيرة هائجة لا تجاز

— يجب ان نساعد المصابين . ولمن ياتي بطبيب جزآ عظيم عندي

فذهب احد الخدم طمعاً بالمال وحملت المركيزة الى فراشها

وكان الصراخ قد استنهض اورور من رقادها فاتت مسرعة وامسكت بشقيقتها لارتياعها من ذلك المشهد

— ياشقيقتي من قتل مدام بريسكا

— رجل نظير ابينا يفضل قتل ابنته عن ان يراها مدنسة

ولبثت امرانت قرب فراش الجريحة تسكب البلسم على جرحها وتنشقها بعض الروائح المحيية حتى سمعت جلبة ارجل في الخارج واناساً يتكلمون بصوت منخفض فظنت الطبيب قد اقبل واسرعت الى لقاه وما اقفلت الغرفة الاّ اختطفتها يدان قويتان ووضع شبامر في فمها وهمس رجل في اذنها (الحمد لله) .

وكان الرجل ارمان قد اتى الى القصر وفي تبعته جنود كثيرة استحوذت على كل منافذه فعرفته الكونتة ووقعت بين يديه مغشياً عليها .

وخرجت اورور من غرفة فبوربنا لتلحق باختها فوجدت نفسها امام ارمان وصرخت

— ارمان . . . ارمان . . .

فدفعها بيده وتقدم الى الفراش ليضع الكونتة ولم يخط خطوة الاّ رجع الى الورآ كمن اخذه الحنو والشفقة ثم التفت الى بعض الجنود فقال

— ادعوا الطبيب

و بعد قليل وصل طبيب العسكر اتماماً لاوامره وعالج الكونتة بما اصحاها ثم عمد الى المركيزة فاستخرج الرصاصة من صدرها وسقاها شراباً رد لها بعض

الرمق فتحركت شفتاها وفتحت عيناها وارادت الحراك فنظرت ارمان واقفاً اماما

— ارمان . . . ارمان

ورفعت يديها تمدهما لمعانقته لاقوى فيها وتنهدت قليلاً وقد استنارت ملامحها بالتعزية والفرح

— انني اموت الان مملوءة القلب . . . قد رأيته وهو قربي

فرق لها قلب ارمان وهو اصلب من الصخر وقبلها قبلة اشعلت نار المحبة في قلب اورور . وعاد الى مدام دندولو نشاطها فاستنهضت وطلبت مواجهة ارمان فاسرع ومثل بحضرتها فقالت

— اردت ان اراك وانا واثقة بك

— امرك !

— ابن اورور

هي هنا . ارسلها الى حيث تشاء . اما انتِ فانك في حوزتي ولا اعتقك مطلقاً

— ارمان

— ياسيدتي

— أ أصدق ما يقال عنك من قلة الشهامة والشرف

— صدقي ما شئتِ . . . لا تنقذك من يدي قوة الجن كلهم

— انت عازم اذن على اغتصابي . . وانهلت العبرات من عينيها

— انني عازم والله عاضدي . .

— قلت لك انني لا اقدر ان احبك

— اذن استعبدك . . . .

واخذ يتمشى في الحجرة والغضب يقدح في عينه ثم عاود فقال

— احذري قد انهت الى هنا والابالسة جندي ونار الجحيم في قلبي فلا بدّ

لي ان انتقم منك ومن بعلك الماكر الخداع

— ما ذنب بعلي اليك « ياعارف الجميل »

— اليس هو المانع الذي يحول بيننا ... كان المالك في ڤينيسيا فسعى باثري كمن يسعى وراء وحش ضار وانا السائد الان فايده وبتبين من منا القوي القادر

— في ڤينيسيا انقذك من اسرك مخاطرًا بحياته ورد لك حريتك

— سآ ما تكرم به علي قد افلتني ليأسرني مرة ثانية ويفعل بي ما يشاء خفية عنك

— ان زوجي يحضر عما قليل فاقتلني قبل ان تقتله

— اقتلك انت ... قد طلبت هذه النهزة من كل قلبي فدخلت المعسكر عندما شهر الحرب على ايطاليا وحصلت على الرتب العالية والمقامات السامية بشجاعتي وخوضي العراك والمهالك حتى اعجب بي قائدنا العظيم بونابارت والان اذ مكنتني السعاده فكيف لا انتهزها .

وكانت الكونتة تسمع كلامه بارتعاد وخوف وهي تقلب افكارها لتجد حيلة بها تقوى عليه وتهدىء غضبة فتحصل منة على الشفقة والرحمة

— ارمان الا تفتكر مرارًا بوالدتك

— والدتي ... انك تحدثيني دائمًا عنها . هل لي والدة هل عرفت لي اهلاً . انك تهزئين بي . قد وجدت طفلاً بين ايدي غرباء قادوني الى غابات اميركا فربيت بين المتوحشين ولم تمد لي سوى يد امير قليل الاهتمام كان خليل ابي فاعطاني مالاً ووضعني تحت الحمايه الملكية ظنًا منة ان ذلك كاف ...... ألي والدة ... لا والدة حتى ولا صديق .... تشكوني الهيئة الاجتماعية . اما حق اليست هي رذالتي ومعاقبتي بذنوب والدي . الم اكفر عن ولادتي منذ وجودي بينما المذنبون راتعون بالامن والاكرام .. لو تعرفين ما هي عيشة ولدٍ مثلي وجد لامعين لة ولا نفر يهديه ولا امل لة

مستقبل لكنت لا تجافيني . قد لعنت والدتي وانا الان العنها

— لا تلعن والدتك يارمان . كم تألمت وكم تكبدت من المشاق والاحزان لفراقك . . . . ولكنّ من الظروف . . .

— اي الظروف تسمح الام ان تترك ولدها . لو عرفت لي اماً للهوت بحبها عن العشق وربيت عزيزاً كريماً . انني احس في قلبي بجراثيم للصلاح وحسن الاخلاق ولو ربيت في ظل والديّ لعشت نتيجة صالحة وغرسة مباركة والان قد فات الزمان ! فانا هالك شرير اذهب يوماً فريسة اهوالي وجنوني

وما اتم كلامه ! الاّ اقبل الطبيب لاهثاً وانحنى ثم قال

— ياسيدي المشير ان الامرأة التي استدعيتني لها واعها على شفا الموت وهي تدعوك وتدعو هذه السيدة

فاسرعت اليها وركعت الكونتة الى جنب فراشها واخذت تعظها

— ياعزيزتي اتتركين هذا العالم قبل ان تتزودي بالتوبة للدخول في الاخرة

اريد قبل كل شيء ان اشافه ارمان اين هو

فتقدم ارمان

— اصغِ الي يارمان . قد يكون موتي عليك سيء العاقبة . وهذا الشيخ الذي قتلهُ كلامك فكانك قتلته بيدك سيتظلم منك امام منبر الله

ثم سكتت قليلاً للاستراحة وعاودت

— اطمئن بالاً فانا اغفر لك واباركك . . . يغفر الله لي ما اقترفت من الاثام لفظاعة ! موتي وطويل آلامي

٦

وكان الفجر قد تألق وانجلى واذا بالمركب والزوارق مزدحمة على البحيرة والكتائب الفرنسوية قد استحوذت على القرى المجاورة واغتصبت المدن

ودمرت البيوت واستفرغت الاسواق من الموائد والمتاع وفي الجملة اقامت بحقوق الحرب« قبحها الله» من الخراب والدمار

وكانت بليانينو من احسن الاستحكامات واقواها كمفتاح البلاد فلم يجهل ذلك ارمان وعليه دفع الغم عنه لحسن القيام بمهام رتبته . وقد اوصى جنوده بنشاط المحافظة ومحاماة السكان وامرهم باستئسار كل رجل ايطلياني غريب عن بليانينو

وفي ضحوة النهار نقلت جثة المركيزة الى كنيسة تريزو واقيمت عليها الصلاة والحفلة اللائقة اما المركيز فلم يصل عليه . وكان ارمان يصدر المحفل حزينًا منكسر القلب يعرب خشوعه عن كرم اخلاقه وحسن داخله لو اعتنت بو يد نصوحة وردعته عن المعاصي فتقدم قبل ان تودع الجثة في التراب وقبلها قبلاً كثيرة ثم سقى قبرها بدموع الكآبة وعاد وحده آسفًا على تلك التي جادت بنفسها في سبيل حبه

وعند وصوله بلغه امرٌ من قائد التجريدة العام بونابارت يعهد اليه قيادة الخطة كلها بتسميته قائدًا عامًا مطلق التصرف وتقدم اليه احد الحرس ورفع كمّه ثم قال

— قد اوقفنا في هذه الساعة رجلاً ايطليانيًا حسب امرِ سعادتك

— اين هو

— هنا في الكنيسة القديمة

— ايتوني بهِ ما اسمهُ

— الكونت دندولو

وعندها ظهر اندريا اصفر اللون ممزق الثياب فانتفض ارمان عندما ابصره

— أ أنت انت

— نعم انا قد اتيت لأعود باسرتي الى ڤينيسيا فتكرم باعطاء الاوامر

اللازمة لذلك

— متى تريد تذهب

— في الحال . اين امرانت

فتراءى اذ ذاك لارمان ماضي حياته وما قد تحمله من الاتعاب والاحزان وافتكر باليأس الذي داخله عند ما سمع بزواج امرانت وشدة حنقوا التي حملته على حب اورور واجتلابها وانتشالها واخذ مالها ليذلل امرانت ويجبرها على الخضوع فاسعر ذلك نيران قلبه وقال

— لا يعنيك امرها وهي لا تخرج من هنا

— لعلني واهم . . . الست حضرتك الموسيو دي ناريل . . . ان الكونتة مطلقة الحرية وهي تلحق بي عن قريب

وصرف ارمان الحاضرين باشارة خفيفة وبقي وحده مع الكونت لا يسمعها الا كرمنتي وقد اختفى وراء شجرة هناك

انك يا موسيو دندولو بعل امرأة احبها منذ عشر سنين امرأة تتبعت اثرها وانا عرضة للاخطار والاهانات وهي الان في حوزتي فما تفعل لو كنت مكاني

— افعل ما قد فعلت بك اي ارد الراحة الى ضدي

— رددت الراحة اليك فاذهب باورور وبخدمك واتباعك كيف شئت وانا اصحبك بجندي كي لا يعارضك احد

— لا اسير بدون امرانت

— انك اسير حرب اخذت مجاهرًا بالعصيان على ما اخبرت فانت من جملة الذين يقتلون . وانا الآمر كلمة مني وانت تمسي هدفًا لرصاص جنودي

— افعل ما تتوعد به فما اخاف الموت

— سر ولا تتأخر الا تراني متوقفًا عن امر قتلك مجالدًا على الغيظ

الذي يضطرم في قلبي . فاذا بقيت وذكرت اسمها او طلبت حقوقك هلكت جانياً على نفسك دون غيرك

وما اتم كلامه الاّ اقبلت الكونتة وانطرحت بينهما فاندهش ارمان وانطلقت اهوآء قلبه فاندفع ويده على قبضة سيفه يريد قتل الكونت غير انهُ توقف خوفاً من ان يصيب امرانت وهي معتنقة بعلها ثم رجع الى الورآء وهو محتدم من الغيظ يقطر السم من قلبه وامر باحضار عشرين جندياً الى حون الطلب واخذ يتمشى امام الكونت والكونتة وهما يتناجيان ذارفين الدموع وبعد هنيهة وقف واحدق بالكونت والبرق يتطاير من تحت جفونهِ

— انك تعرفني . اذا اردت جددت وانا جددت وجدت وقد طالما طلبت امرأتك وما سكنت حتى ظفرت بها ... والان انت تقتل ذليلاً مكبلاً فانا انقذتك اخللت بواجباتي وكنت عدو نفسي

وكان كلام ارمان رهيباً مخيفاً شعرت بهِ الكونتة فالتفتت الى بعلها وقالت

— يا عزيزي اندر يا ماذا اصنع لحفظ حياتك وصيانة شرف بيتك

— قد اخترت الموت

— وانا مت انت فلا مناص لي من يد هذا الرجل انهُ قدير ومن الممكن ان لا اصل اليك الاّ مدنسة

وكان ارمان يتبع حركات الكونت فرآه قد اصفرّ ولبث جامداً كمن يتفكر ثم قبل امرانت وانهضها بيديه . فرمى ارمان بنفسه عليهِ وقد فهم مراده ودفعهُ دفعة القتهُ طريحاً ثم دعا ببعض الجنود وقال

— اوثقوا هذا اللئيم فلن يفلت ابداً

فقبض الجنود على الكونت وقيدوه بالاغلال واوثقوه على شجرة هناك . وعاد ارمان الى امرانت فقال

— والان يا حضرة السيدة تقدرين على الاستشارة وانا انتظرك

فدنت من زوجها وقالت

ـ يا عزيزي اندريا ليس لي قبل على فراقك وعلى هلاكي وهلاك اختي . لم يعد لي وسع للاحتمال والله لا يحمل المرء فوق طاقته

والتفتت الى ارمان

ـ انتظرني هنا لآتيك بجواب مقنع واقسم لي بحياتك الاّ يصيب اندريا مكروه في غيابي

وقبلت زوجها وصعدت الى غرفتها وهي عازمة لنجاته على تتميم امرٍ عظيم على نقض وعد مكرس قد طالما خاطرت بنفسها واحتملت اهانات شتى وعذابات عديدة مخافة ان تنكثه وعادت بعد هنيهة مع اورور حاملةً الصندوقة التي اودعتها اياها امها عند موتها ونظرت ارمان فقالت له

ـ مر بفك رباط الكونت

فتقدم ارمان وحلّه بيده واجتمع الجميع قربها فقالت

ـ اني مبيحة بسر بهمنا كلنا لما بيلنا من الصلات القوية سر كدّر صفاء حياتنا واوصلنا الى هذه العاقبة التعيسة فاسمعوا ما اقص عليكم . . . وعليه ما احييتك يا ارمان رغماً عما ارتكبت من الذنوب الرائعة وما حملتني من الآلام والغصص الاّ لأنّ والدتي والدتك . . . ولانك انت اخي . . . . .

فاشرأب الكونت وصرخ ارمان صرخة تعجب وقاطعتها اورور فقالت

ـ اذن هو اخي

ـ انه اخوك ايضاً ولهذا ابعدته عنكِ ما استطعت

فلم تقوَ اورور على السماع ووقعت غائبة الرشد على قدمي اختها فاسندتها امرانت على ركبتيها بحنوّ وتعطف والدي وارمان واقف منحني الرأس ينظر اليها والكونت يساعد قرينته على انهاض اختها

وعيل صبر ارمان فقال

ـ دعي هذه الفتاة لعناية الطبيب وانبئي لي ما ادعيت فانني فقدت صبري

واذا طال الحال فقلت نفسي . ماهذه الصندوقة التي بيدكِ وعلامَ تحتوي
تتضمن اسرار والدتنا وشرف عائلتنا

— فاذن اكيد بانني اخوك وان عشقي

— لا تقل عشقي وقد وقفت على السر وعرفت جهد الامر

— قد حتم عليّ بالحزن الدائم . . من كان ابي

— الشفالير دي سانت مام ابن عم والدي فنحن اقارب من الاب والام
فاحمر الكونت عند ذلك

«والدتي بريئة ما عرفت بالجريمة الاّ بعد وقوعها بزمان وكفرت عنها كل حياتها

وتوقفت امرانت عن الكلام فقال ارمان

— اكملي اكملي فقد وقع في نفسي ان اطلع على تتمة القصة

— ما امرها حادثة . . «ان والدتي سليلة قوم اماجد من آل لوزيان فقدت ابويها في سن صبوتها فاخذها جدنا المركيز دي سانت مام تحت ظله و بذل العناية في حسن تربيتها وتربية حفيده (ابيك الذي انت تشبهه مشابهة غريبة شعرت بها والدتي اول مرة نظرتك) . وكان الفتيان مؤتلفين باخاء وثيق العرى . وقد وقف جدنا على تحابهما فتجاهل عن الامر وهو غير راض به اذ كان مراده ان يزف الفتاة على ولده

وكان الحفيد بديع الخلقة بطلاً باسلاً وخادماً اهواه مثلك فاصطحبه البرنس دي كونتي رغماً عن سوء سيرته واعتسافه عن سواء الطريق

ولما بلغت والدتي الثامنة عشرة من عمرها اطلعها وصيها على مرامه ان تكون امرأة لابنه فاسترحمته عليها واقرت له بارتباطها مع الشفالير فاجابها انه لا يسمح حبًّا بها ان تقترن برجل لا خير فيه ولا غنى له وانه يضعها تحت حماية ولده امجد الرجال واحرصهم على الشرف وطلب الرفعة وهو ينقذها من كل الاخطار و يبعد عنها متابعات الشفالير

فلم تمانع والدتي جبانة منها وقبلت الزفاف على ابي آكراهاً . ورحل الشفاليرالى بلاد بعيدة واتفق ان اجبر ابي على السفر لمهمة ما فلم يسع امي ان ترافقه لضعف المّ بها من جرآء الاحزان التي خامرتها بعد الزيجة وفي تلك الاثناء رجع الشفاليرمن سفره واستعمل للوصول الى امي جهد الحيل والخداع وعاد مسعاه بالخيبة عليه حتى فرغ والدي من اعماله واعلم بحضوره عن قريب فعزم ابن عمه على دسيسة دنيئة ان رشا خادم امي وخادم ابي المقربين فاعلما سيدتهما ان المركيز يصل تلك الليلة نيهاً على غير علم منها ليسرها بدهشة لطيفة شهية كهذه وسألاها ان تتجاهل لئلا يشتبه المركيز انهما اطلعاها على ما اخبر سرّاً فاستعدت لارضاء زوجها وفي تلك الليلة اخرجت الخادمة المعقوفة قنديل الغرفة منها وادخلت الخداع الدنس وتمت الجريرة في ظلمة عميقة بمبادلة الفاظ تحبب غش بها الشفالير والدتي لتمام المشابهة بين صوته وصوت ابي وعند الصباح افاقت المركيزة من رقادها فوجدت رسالة من زوجها يقول بها انه قد تأخر ميعاده في المجيء الى سنة او تزيد فعرفت دسيسة الشفاليرواستولى عليها الحزن و بعد قليل وحمت فكاد يطير عقلها حزناً وقهراً وفكرت ان تقتل نفسها لولا حبها للشفالير ولا بقاء ولد منه بعده

ولما حان لها وادتك يا ارمان وسلمتك رضيعاً الى احدى خادماتها وارسلتها الى اميركا الشرقية مسقط راسها واهلها ربوك وعندهم نشأت

وكان ابي من الرجال النادري المثال من طبيعة المركيزبريمكا ينفصل الشرف على الحياة ولو علم بما جرى لقتل امي وقتلك وسفك دم ابن عمه بلا رحمة

فبعد الاجل المضروب عاد الى بيته ووجد امي في حالة مفزعة من الغموم والاكدار والآلام وكثيراً ما حدثتها نفسها ان تنطرح على اقدامه وتقرّ له انها لم تعد تستحق مدانانه ولكن خوفها على عمك وعليك ان يلحق

زوجها بكّا مكروهًا ردها عن الاعتراف ولكنها اكتفت لتكفّ عن ذنبها ان تحرم نفسها السرور وتلزم العزلة عن الناس وتعيش ابدًا في الزهد التام وبذلك حفظت لها طول عمرها سمعة حسنة في كل فرنسا ولم تلبث ان ولدتني ثم ان ولدت اختي واعرف انها ما امضت يومًا الاّ بكت على فراقك اسفًا اما ابوك فبقي على سيرته نفسها يعيش من مالنا حتى علم ابي بما كان عليهِ من خصاصة الافعال وقلة الشرف فاستأذن الحكومة ان تنفيه من بلاده والجملة اتم الاهمال ولم ينصب الشفاليه تلك القسوة الا لامي مدعيًا انها هي التي حملت بعلها على اضطهاده مع انها استعملت كل الوسائط لتسترضي زوجها عنهُ وكانت كالنافخ في رماد وقد احس ابوك بالشفقة عليك في منفاه والتجأ الى شفيعهِ البرنس دي كونتي فاخبره انك ولدت لهُ من امرأة قد ماتت وطلب اليهِ بلجاجة ان ينقذك من ظلم وسوء معاملة الغربآء وان يكفلك ضاربًا صفحًا عن اصلك ومولدك حتى يفتح الله لك باب فرج وتحسين حال فحن عليك البرنس واسترجعك من اميركا الى فرنسا وعندها رايناك ولا تجهل البقية . واخبر مربوك امي انك مت غير ان قلبها كذب الخبر فلبثت تبكي على شقا تك امر البكاء ولما ابصرتك اول مرة دلها فوأدها انك انت انت وبعد موتها تركت لي هذه الصندوقة ورسالة بها تسألني ان استبرئ عليك الارض وان ابحث عنك واهتم بشانك واتمامًا لامرها واجهت دي كونتي فوقفني على الحقيقة ولم يكتم عني شيئًا وحينئذٍ اخذت ان اهتم بك اهتمام اخت شفيقة

و بعد رجوعي من فينيسيا عرفت ان اورور قد عشقتك فاخبرت ابي انك شاب من اصل مجهول فقير حقير لست اهلاً لمصاهرته فدعا اورور ولعنها اذا احبتك او تزوجت بك ومن ذلك الحين حلت بينكما هنا ما وعدت امي واقسمت لها ان اكتمهُ عن العالم باسره قد افشيتهُ الآن اذان الضرورات تبيح المحظورات فاطووا هذا السر بقلوبكم كانكم لم تسمعوا شيئًا

منه وإياكم ان يباح به»

فابتسم ارمان ازدرا لابيه وسالها

— وكيف مات ابي رحمة الله عليه »

— قتله في براز احد اخصامه لانه دنس امرأته ولم يجزن عليه

فبكته الى اخر دقيقة من حياتها ... وحياتك يا ارمان كانت امـ

ولما فرغت من قصتها تعانق الجميع عناق اخاء وصفاء وا

في رتبته مواظبًا على عمله الى حين . فاصطلح قلبه وشفيت جراحه

عوائده السيئة وكادت اورور تطير من الفرح والمسرة وقبلت

ذلك الذي طالما اشتهت من قبل ان تنظر اليه نظرة او ان تشافه

ثم عادوا جميعًا الى فرنسا بعد نهاية الحرب واستوطنوا فيها ناعمين

هني وسرور ونوادٍ لا يوصف .

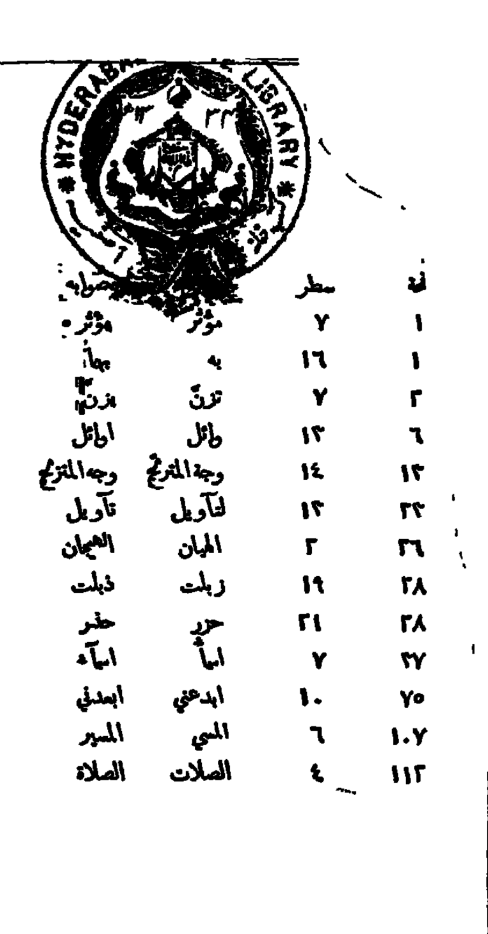
واخنت[1] الايام على بليانينو فلبثت بعدهم قفرًا لا انيس فيها تر

الان جدرانها العاديّة اصوات التنهد والحَرَب وتمثل بين اصنامها ا

والكرب

---

١ ثقلت



صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	٧	مؤثر	مؤثر
١	١٦	به	بها
٣	٧	تزن	بزنة
٦	١٣	طائل	اطائل
١٣	١٤	وجة المترجح	وجه المترجح
٣٣	١٣	لتآويل	تآويل
٣٦	٣	الميان	الهيمان
٣٨	١٩	زبلت	ذبلت
٣٨	٢١	حرر	حذر
٣٧	٧	اسمأ	اسمآء
٧٥	١٠	ابدعني	ابعدني
١٠٧	٦	المسي	المسير
١١٣	٤	الصلات	الصلاة